

اهداءات ٢٠٠٢

أ/حسين كامل السيد بك فهمي
الاسكندرية

الدستور

ومكانته في التشريع الإسلامي

تأليف

الدكتور عبد الحليم محمود

منشورات

المكتبة العصرية
صَيْداً - بَيْرُوت

من مراجع الكتاب

- ١ - صحيح البخاري
- ٢ - صحيح مسلم
- ٣ - سيرة ابن هشام
- ٤ - رياض الصالحين
- الانوار المحمدية - للنبهاني
- ٦ - السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي : للمرحوم الاستاذ مصطفى السباعي .
- ٧ - السنة قبل التدوين - للاستاذ عجاج نويهض
- ٨ - الرسالة للامام الشافعي
- ٩ - رجال الفكر والدعوة لابي الحسن الندوبي
- ١٠ - الرسالة المحمدية للسيد سليمان الندوبي
- ١١ - الحديث والمحدثون للشيخ محمد ابو زهو .

مقدمة بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين

يقول الله تعالى : من يطع الرسول فقد أطاع الله .
ويقول سبحانه : وما آتاكم الرسول فخذلوه ، وما
نهاكم عنه فاتهوا .

ويقول : فلا ، وربك ، لا يؤمنون حتى يحكموك فيما
شجرون بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ،
ويسلموا تسلیما .

وفي حديث صحيح يقول المقدام بن معدي كرب :
« حرم النبي صلى الله عليه وسلم أشياء يوم خير ، منها
الحمار الاهلي وغيره »، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
يوشك ان يقعد الرجل منكم على اريكته ، يحدث بحديثي
فيقول : بيسي ويبينك كتاب الله ، فما وجدنا فيه حلالا
استحللناه ، وما وجدنا فيه حراما حرمناه . وأن ما حرم
رسول الله كما حرم الله » .
وبعد :

فيجب القراء عادة ان يعرفوا شيئا عن ظروف تأليف
الكتب التي يقرءونها ، لأن ذلك يضعهم في جو يهدى لهم

تقدير الكتاب في صورة أعمق : حيث عرفوا الظروف والملابسات ، ولأن ذلك يقربهم من جو الكاتب النفسي ، ويدخلهم ، نوعا ما ، في محبيه الخاص ، فتكون بينهم وبينه – على بعد – بعض اسباب الالفة . ومن اجل توضيح ذلك أكتب هذه المقدمة :

ان السنة : دعوة بالحسنى الى الرقي الاخلاقي الذي تجري وراءه الانسانية المذهبة ، انها دعوة الى التاجر ان يكون صادقا ، فيحشر مع النبيين والصديقين والشهداء ، والى العامل ان يتقن عمله ، لأن الله يحب اذا عمل احدكم عملا ان يتلقنه .

والى الصانع ان يؤدي العمل كما يجب ، حيث اخذ الاجر ، ومن اخذ الاجر حاسبة الله على العمل .

وهي دعوة الى الاب ، باعتباره ابا ، والى الام في وضعها كأم ، والى الاخ في مهمته كأخ ، والى غيرهم من افراد المجتمع : أن يرعى كل منهم ما وكل اليه من امر رعيته وكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته .

وهي دعوة للناس الى الامانة ، حيث أنه لا ايمان لمن لا امانة له .

والى الصدق ، وان الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا .

والى الرحمة : الرحمة العامة الشاملة ، وصلوات الله وسلامه على من قال :

« انما انا رحمة مهداة » .

ومن قال : « ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء » .

وخذ أي خلق كريم تمنى ان يسير عليه المجتمع :
فستجد في السنة دعوة اليه ، بوسيلة او بأخرى ، وبثالثة .
وهي في هذه الدعوة تنبه دائما الى دور الامة الاسلامية
في الاخلاق العالمية : أن دورها : انما هو دور الرائدة
الراعية وعلى الرائد دائما ان يكون المثل الاعلى . والاسوة
الكريمة ، والقدوة الصالحة .

ولقد كان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : الصورة
اللحية الناطقة التي طبقت كمبادئ انسانية ممكنة — الخلق
الذى رسمه الله وأحبه للانسانية جموع ، والذى عبرت
عنه السنة اجمل تعبير وأبلغه .

ومن اجل هذا التقدير الكريم للسنة الشريفة كان
العلماء المستبررون في كل عصر : يجاهدون من اجلها ،
ومن اجل مكارم الاخلاق التي تعبّر عنها ، وكان هؤلاء
العلماء — علماء السنة — يعرفون بسيماهم : فقد كانوا من
الزهد في حطام الدنيا : بحيث لا ينزعون الناس في دنياهم :
لقد كانوا مشغولين عن جمع المال بخدمة الدين ،
وكانوا مشغولين عن الجاه بغرس الخلق الصالح الكريم ،
وكانوا مشغولين عن السلطان بمن يده السلطان يؤتى به
من يشاء وينزعه من يشاء: مالك الملك ذي الجلال والاكرام .

وكانوا صادقين ، لقد كان الصدق دينهم وفطرتهم •
وكانوا صابرين على الحياة ، وصابرين على العمل :
لقد اقاموا نهارهم ، وأسهروا ليلهم عملا على مرضاة الله
ورسوله صلى الله عليه وسلم •

ومثل الذي نحب أن نسوقه — كصورة لهؤلاء القوم
— هو : الامام احمد بن حنبل ، رضي الله عنه ، انه المحدث
الذي حاول ان يكون صورة صادقة لما كان عليه الرسول ،
صلى الله عليه وسلم ، في الزاوية الاخلاقية •

وسيرة الامام ، رضوان الله عليه : مثل اعلى في
التمسك بما يراه حقا ، وفي الصبر على ما يناله في سبيل
التمسك بالحق •

على ان كل من تشبع بالسنة حقا : انما هو صورة ،
قريبة بقدر المستطاع ، من الامام احمد •

ولقد كان الامام البخاري وغيره من أشربت فوسفهم
حب السنة : امثلة كريمة للخلق الكريم •

والامثلة الكريمة للخلق الكريم هدف دائم لسهام
النماذج الاشيمه التي استهواها الشيطان في قليل او في كثير:
انه النزاع الدائم بين الفضيلة واصحابها ، وبين المثلين
لنزعات الهوى والضلال •

ولولا وجود هذه المثل العليا لمكارم الاخلاق في كل
عصر لفقدت الانسانية الثقة بنفسها ، ولما اطمأن انسان
لانسان ، ولما وثق شخص بأخر •

لقد ربّت السنة رجالاً ، وخصائصها التي ربّت بها الرجال موجودة فيها ، لأنّها من طبيعتها ومن ذاتها . ولقد شاهدت الإنسانية واعترفت باسمه هؤلاء الرجال ، وأولتهم ثقتها وتقديرها .

إنّ الإمام أحمد بن حنبل ، وإنّ الإمام البخاري ، وإن أمير المؤمنين في الحديث : الإمام سفيان الثوري ، وأمثال هؤلاء ، رضي الله عنهم : منارات يهتدى بهم عشاق المثل العليا الأخلاقية .

لا بدّ اذن من العمل على نشر السنة وادعاتها ، ومحاولة الاكثار من النقوس التي تتشرب بها وتحقيقها وتمثلها وتحيّتها .

لا بدّ من نشرها وطنية .

ولا بدّ من نشرها إنسانية ، لأنّها تعبر عن أرقى مستوى إنساني .

ولا بدّ من نشرها ديناً .

ولا بدّ من نشرها ذوقاً أدبياً .

ولا بدّ من نشرها للثروة اللغوية ..

وما من شك في أن للسنة جواً فكريّاً : فالرسول ، صلى الله عليه وسلم : يتحدث عن اصلاح المجتمع ، وعن عوامل الهدم ، التي تعمل على تقويضه ، وعن عوامل البناء التي تعمل على اقامته على قواعد سليمة ، ويتحدث عن

النظم التي ينبغي ان تسود المجتمع الانساني ، وعن الاوضاع
التي يجب ان تستقيم .

وللسنة جو لغوي : فالرسول ، صلى الله عليه وسلم
قد اوتى جوامع الكلم ، وكلامه ، صلى الله عليه وسلم
بلغ الكلام البشري ، ونشر السنة عامل من اهم العوامل
على ترقية اللغة التي يكتب بها الكتاب، وعلى وضع الناشئين
والملتحقين في وضع ادبي ممتاز ، من حيث اللغة ، ومن حيث
الاسلوب .

وللسنة جو روحي : انها تهذيب للنفس ، وتربيه للروح
وسمو بالاخلاق الى درجة لا تجاري ، صلى الله وسلم
على من قال :

« انما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق » .
ورحم الله شوقي اذ يقول :

انما الامم الاخلاق ما بقيت فانهموا ذهبت اخلاقهم ذهبوا
ومن اجل ذلك كله كان نشر السنة واجبا دينيا ،
وعمرا اجتماعيا كريما ، وواجبا وطنيا حتميا ، واصلاحا
اخلاقيا ساما .

وهو على كل حال ضرورة وطنية ملحة في عصر تحاول
الرذيلة فيه ان تعمم الانحلال الخلقي في كل اسرة وفي كل
بيت، ويحاول الفساد ان يأتي على مقدسات الامة ومقوماتها
من عرض وشرف وكرامة .

لقد احب الله للانسانية مثلا اخلاقيا كريما رسمه
سبحانه في القرآن الكريم قوله ، فكان رسول الله صلى
الله عليه وسلم الصورة التطبيقية الكاملة للرسم الالهي ،
وكان بذلك الانسان الكامل ٠

لقد كان المثل الاعلى في الرحمة ، والمثل الاعلى في
الكافح والمثل الاعلى في الصبر المجاهد المتفائل ، والمثل
الاعلى في الصدق ، في الاخلاص ، في الوفاء ، في البر ،
في الكرم ٠

ولقد وصفه الله سبحانه وتعالى بقوله :
« وانك لعلى خلق عظيم » ٠

ولا ريب في ان الامة الاسلامية حينما تقتندي بالرسول
صلى الله عليه وسلم : انما تقتندي بأعظم البشر رجولة
وانسانية ٠

وتقتندي بمن احب الله سبحانه ان تقتندي به ٠
« لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة ، من كان
يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيرا ٠»

وان العمل على نشر السنة انما هو توجيه للاقتداء
بالرسول ، صلى الله عليه وسلم ٠
والله ارجو ان يجعله عام النفع ٠
وان يهدى به ٠

وان يجعله ذخيرة ، يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من
أحب الله بقلب سليم ٠

الفصل الأول

الرسول ﷺ و سنته الشريفة

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ٠

«ربنا آتنا من لدنك رحمة، وهيء لنا من امرنا رشدا»

«ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك
رحمة انك انت الوهاب » ٠

خاتم الانبياء :

يقول الله تعالى لرسوله الكريم، صلى الله عليه وسلم:

« وما ارسلناك الا كافية للناس بشيرا ونذيرا » وما

كانت هذه الرسالة العامة لأحد من الرسل من قبله، فموسى
عليه السلام أرسل لبني اسرائيل خاصة، لقد اقتصرت دعوته
على بني اسرائيل ، لدرجة انه حينما ذهب هو وهارون ،
عليهما السلام ، الى فرعون ، قالا له : « انا رسول ربک ،
فأرسل معنا بني اسرائيل » ٠

فموسى ذهب الى فرعون ليرسل معه بني اسرائيل ٠

ولم يكافح سيدنا موسى الشعوب ، أو الامم في سبيل
دعوته ٠

وعيسى ، عليه السلام ، انا ارسل الى ٠٠ « خراف
بني اسرائيل الضالة » ، على حد تعبيرهم القديم ، ولم

يحاول سيدنا عيسى ان يبشر بدعوته خارج فلسطين ، ولم
يحاول ان يجاهد من اجلها .

اما رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فانه ارسل
الى الناس جمیعا ، انه ارسل الى الناس جمیعا من حيث
المکان ، وارسل اليهم جمیعا من حيث الزمان، فهو الرسول
ال دائم زمانا ومکانا .

« قل يا أيها الناس اني رسول الله اليکم جمیعا » .
وقد تکفل الله تعالى بحفظ الكتاب الذي أنزله على
رسوله ، صلى الله عليه وسلم ، ضمانا لهذا العموم في
الزمان وفي المکان ، وتحقيقا له .

« انا نحن انزلنا الذکر وانا له لحافظون » .
ومن اجل هذا ال وعد بحفظ الوحي كاملا غير منقوص،
صحيحا غير مزيف ، كانت الحکمة الالھیة في ان الانسانية
لا تحتاج الى رسول بعد الرسول ، ولا الى نبی بعد النبی ،
انه صلوات الله وسلامه عليه : خاتم الرسل، وخاتم الانبیاء .
ولقد امتزج رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ،
برسالته الخالدة ، فكان هو هي شرحه وتفصيلا .
وكانت هي هو بيانا لمعدنه وجواهره ، وخلافة له ،
ونیابة عنه .

تقول السيدة عائشة ، رضي الله عنها : « لقد كان
خلقه القرآن» وهذه الكلمة من السيدة عائشة، رضوان الله
عليها تحتاج الى تحديد وبيان . ذلك ان القرآن يحدد

الخلق الكريم في حده الأدنى ، ثم لا يفتصر على ذلك ، وانما يرسم القسم من مكارم الأخلاق ، ويوجه الى السنام منها ، ويقود الى المشرف العليا من درجات المقربين .
فهل تريده السيدة عائشة ، رضوان الله عليها ، حينما تصفه ، صلى الله عليه وسلم ، بأن خلقه القرآن : هل تريده الخلق الكريم في حده الأدنى ، أم تريده في حده الأوسط ، أم تريده في حده الاسمي ؟

ان القرآن يحدد الدرجة التي وصل اليها الرسول ، صلى الله عليه وسلم من الخلق القرآني فيقول سبحانه لرسول الله صلى الله عليه وسلم : «وانك لعلى خلق عظيم» هذه الآية القرآنية الكريمة تحدد درجة الأخلاق القرآنية التي وصل اليها الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، أنها ذروتها وسنامها .

أول المسلمين

ولقد قال صلوات الله وسلامه عليه :

«انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

انه صلى الله عليه وسلم بعث ليتمم المكارم الأخلاقية ليتمها بذاته ، بسلوكه ، وليتسمها بقوله : برسالته .
انه لم يبعث لينشر الأخلاق الكريمة فحسب ، وانما بعث ليتمم مكارمها .

ومكارم الأخلاق لم تكن — قبل الرسول صلوات الله وسلامه عليه — قد تمت . ان اول المسلمين لم يكن قد

وَجَدَ بَعْدَهُ وَكَانَ بِذَلِكَ مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ نَاقِصَةً، كَانَ يَنْقُصُهَا أَكْمَلُ صَفَّةِ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَهِيَ اسْلَامُ الْوِجْهِ لِلَّهِ اسْلَاماً تَامًا • اَنَّ الْكَائِنَاتَ لَمْ تَكُنْ قَدْ وَصَلَتْ — لَا فِي نَبِيٍّ مُرْسَلٍ، وَلَا فِي مَلِكٍ مُقْرَبٍ — إِلَى الدُّرُوهُ مِنْ اسْلَامِ الْوِجْهِ لِلَّهِ، وَالدُّرُوهُ مِنْ اسْلَامِ الْوِجْهِ لِلَّهِ، او اُولَامِ الْمُسْلِمِينَ — وَالْتَّعبِيرُانِ سَوَاءٌ — اَنَّمَا هُوَ الدُّرُوهُ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ • اَنَّهُ الْكَائِنُ الرَّبَّانِيُّ : اَنَّهُ اُولَامِ الْمُسْلِمِينَ ، او لَهُمْ بِاطْلَاقٍ، او لَهُمْ بِالنِّسْبَةِ لِلْمَلَائِكَةِ ، وَاوْلَاهُمْ بِالنِّسْبَةِ لِبَنِي آدَمَ ، او لَهُمْ قَدِيمًا ، وَاوْلَاهُمْ إِلَى الْاَبَدِ • • اَنَّ اُولَامِ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَكُنْ قَدْ وَجَدَ بَعْدَهُ •

وَكَانَ الْاِنْسَانِيَّةُ بِذَلِكَ نَاقِصَةً ، وَكَانَ الْكَائِنَاتُ كُلُّهَا بِذَلِكَ نَاقِصَةً •

كَانَ الْكَوْنُ نَاقِصًا مَادَّةً وَمَعْنَىً ، كَانَ يَنْقُصُهُ اَنْ تَتَعَطَّرَ اَرْضُهُ بِأَزْكَى الْاجْسَادِ ، وَانْ يَتَعَطَّرَ جُوْهُ بِأَزْكَى الْاَرْوَاحِ ، وَكَانَ لَا بُدَّ مِنْ وَجُودِ كَائِنٍ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ يُكَمِّلَ اللَّهُ بِهِ الدِّينَ، وَيَتَمَّ بِهِ النَّعْمَةُ ، وَيَرْضَى رَسَالَتُهُ دِينًا عَامًا خَالِدًا لِلْاِنْسَانِيَّةِ جَمِيعًا : هُوَ اسْلَامُ الْوِجْهِ لِلَّهِ •

وَيَنْزَلُ الْقُرْآنُ مُحَدِّدًا اسْلَامَ الْوِجْهِ لِلَّهِ وَسَائِلَ ، وَمُحَدِّدًا اسْلَامَ الْوِجْهِ لِلَّهِ غَايَاتٍ ، مُحَدِّدًا اسْلَامَ الْوِجْهِ لِلَّهِ طُرُقاً وَاسْالِيبًا ، وَمُحَدِّدًا لَهُ بُواعِثَ وَاهْدَافًا • وَمِنْ هَنَا كَانَ مَنْ يَتَغَيَّرُ غَيْرُ اسْلَامِ دِينِنَا لَا يَقْبَلُ مِنْهُ • يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى :

« ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه »
وكيف يقبل منه ما يتنافى مع اسلام الوجه لله ؟

ان اسلام الوجه لله هو الذروة من مكارم الاخلاق ،
وهو جوهر التدين ، انه الدين القوي ، انه الدين الخالد .
والنص الوحيد ، النص الالهي الفريد في العالم كله الذي
يبين كيفية اسلام الوجه لله ، انما هو القرآن . و اذا ما وصل
الانسان الى اسلام الوجه لله كان بذلك في ذروة الانسانية .
وفي الذروة من مكارم الاخلاق .

ويتفاوت الناس في اسلام وجوههم لله ، ولا بد من
ان يكون احدهم اول المسلمين ، فكان رسول الله ، صلى
الله عليه وسلم ، اولهم باطلاق مطلق .

« قل ان صلاتي ونسكي ، ومحبتي ، ومماتي ، لله
رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك امرت ، وانا اول
المسلمين » .

ولم يصف القرآن بأول المسلمين شخصا آخر غير
الرسول ، صلى الله عليه وسلم .

ومكارم الاخلاق لا يحدها — من حيث التبشير بها —
مكان ولا يحدها زمان ، بل ولا يحدها عالم من عوالم الله
في الارض او السماء ، ومن اجل ذلك كانت رسالته ،
صلوات الله عليه وسلم ، رحمة للعالمين .

من مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم عند ربه :
رسول الله ، صلى الله عليه وسلم — لأنه يمثل
الأخلاق القرآنية في ذرورتها وسماتها — جعل الله ، سبحانه
وتعالى ، له مكانة خاصة بين المسلمين ، فهو ، صلوات الله
وسلامه عليه — لأنه تمثل القرآن وحققه ، وأصبح قرآنًا —
أصبح بذلك يمثل الحق بقوله ، ويمثل الحق بعمله ، فلا
ينطق عن الهوى ، ولا يعمل بالهوى .

يقول الله ، تبارك وتعالى له ، معبراً عن هذه الحقيقة
اروع تعبير :

« وانك لتهدي الى صراط مستقيم ، صراط الله »
ويقول تعالى لرسوله ، صلى الله عليه وسلم :
« قل : انتي هداني ربى الى صراط مستقيم ، ديننا
قيما »

بل ان طريق الدعوة نفسه ، كان ، صلوات الله وسلامه
عليه ، يسير فيه معصوما ، وكل من يسير في الدعوة على
نفقه ، اذما يسير معصوما بعصمة الرسول ، صلى الله عليه
وسلم ، التي منحها الله تعالى آيات :

« قل : هذه سبيلي ادعو الى الله على بصيرة انا ومن
اتبعني » .

ودعوته اذن وطريق دعوته : يسير فيهما على هدى ،

وعلى نور من ربه ، ولذلك فان : « من يطع الرسول ، فقد اطاع الله » .

فيقول سبحانه :

ويعلم الله ، سبحانه ، الحكم تعميما ، ويطلقه اطلاقا ،
فيقول سبحانه :

« وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فات فهو »
ويقول تعالى : « وان طبائعهم تهتدوا » .

« قل : ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله » .
ان حب العبد لله لا ينفي ما لم يت忤د العبد الوسيلة
الناجعة لذلك ، وهذه الوسيلة هي : اتباع رسول الله ،
صلى الله وسلم .

ولقد قال الله ، سبحانه وتعالى : في حديث قدسي ،
رواه الامام البخاري: « من عادى لي ولها فقد آذته بانحرف ،
وما يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحبته
كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده
التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وان سألني أعطيته
ولئن استعاذه لأعيذه » .

وهذه النوافل التي ذكرت في الحديث الشريف ، والتي
اذا أكثر الانسان منها ، بعد اداء الفرائض ، أحبه الله : انما
هي سلوك رسول الله ، صلی الله عليه وسلم ، انها طريق
رسمه ، صلوات الله عليه وسلامه بقوله وبعمله . انها

سننه ، صلوات الله وسلامه عليه ؛ التي سنها ، لينال
الانسان بها محبة الله ، سبحانهه .

(من مكانة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ربه ايضاً)

وأحب الله ، سبحانهه ، رسوله ، صلى الله عليه وسلم
وكان هذا الرسول بعبوديته لله سبحانهه ، حبيب الله
وبلغ الرسول ، صلوات الله عليه وسلم ، ب العبودية التامة
درجة اول المسلمين ، كما سبق ان ذكرنا .

ولما كان اول المسلمين ، وذان حبيب الله ، ونبيه ،
ورسوله : ميزة الله ، سبحانهه وتعالى على بقية البشر بكونه
خيرهم ، وهذا المميز لا يخرج عنه صلوات الله عليه وسلم
عن البشرية : فهو بشر وهو خير البشر : ومنتهى القول
فيه انه بشر — وانه خير خلق الله كلهم ، ولأنه خير البشر :
يقول الله تعالى مخاطبا المؤمنين : « لا تجعلوا دعاء الرسول
يبيكم كدعاء بعضكم بعضا » .

ان الانسان الذي خصه الله بالوحى ، واجتباه
لرسالته ، واصطفاه ليكون — باسمه ، سبحانهه — بشيرا
ونذيرا ، ان هذا الانسان الذي فضل الله على العالمين :
يجب ان نعرف له مكانته وتنزله في الشرف الذي أنزله الله
فيه . ان هذا السراج المنير ، ان هذا الرءوف الرحيم : ينبغي
الا يدعى كما يدعى زيد وعمرو : « بمعنى لا تنادوه باسمه :

فتقولوا : يا محمد ، ولا بكتنيته فتقولوا : يا ابا القاسم ،
بل نادوه وخطبواه بالتعظيم، والتكرير، والتوقير بأن تقولوا:
يا رسول الله ، يانبي الله ، يا امام المرسلين ، يا رسول رب
العالمين ، يا خاتم النبيين وغير ذلك ..

واستفید من هذه الآية — كما يقول الشيخ الصاوي
في حاشيته على تفسير الجلالين — انه لا يجوز نداء النبي
بغير ما يفيد التعظيم ، لا في حياته ، ولا بعد وفاته ، فبهذا
يعلم ان من استخف بجنبه ، صلى الله عليه وسلم : فهو
كافر ملعون في الدنيا والآخرة » إ هـ

ويقول الله سبحانه في أوائل سورة الحجرات : « يا
أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله » أي لا
تقدموا بأمر من الامور ، قوله كان او فعلا ، الا اذا أذن
الله ورسوله ، وكل امر : قوله كان او فعلا : أتاه الانسان
بدون اذن الله ورسوله : فانه لا يقع على السنن المستقيم .
 يقول الضحاك عن ذلك : هو عام في القتال وشرائع
الدين ، أي لا تقطعوا امرا دون الله ورسوله « واتقوا الله
ان الله سميح عليم » .

« يا ايها الذين آمنوا لا ترفعوا اصواتكم فوق صوت
النبي ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض » .

واحدروا ان فعلتم ذلك : « أن تحبط اعمالكم واتم
لا شعرون » .

« ان الذين يغضون اصواتهم عند رسول الله ، اولئك
الذين امتحن الله قلوبهم للتفوي ، لهم مغفرة واجر عظيم »
اما هؤلا الذين أساءوا الادب دون ان يقصدوا فأخذوا
ينادونك من وراء الحجرات مناداة الاعراب الاجلاف ، فان
عقولهم — في الغلب الاعم — ناقصة : « ان الذين ينادونك
من وراء الحجرات اكثراهم لا يعقلون ولو أنهم صبروا حتى
تخرج اليهم لكان خيرا لهم ، والله غفور رحيم » ٠

على ان مجرد الرغبة في الحديث ، الى رسول الله ،
صلى الله عليه وسلم ، يحتاج تنفيذها الى تقديم صدقة ،
يقول الله تعالى في سورة المجادلة ٠

« يا ايها الذين آمنوا اذا ناجيتم الرسول فقدموا بين
يدي نجواكم صدقة ، ذلك خير لكم ، وأطهر ، فان لم
تجدوا فان الله غفور رحيم » ٠

وتدل الآية الكريمة على ان ترك تقديم الصدقة اثم ،
لأن من لم يجد الصدقة فان موقف الله سبحانه منه — لعدم
قدرته — المغفرة والرحمة ، ولا تكون المغفرة والرحمة الا
على اثم اتاه الانسان ٠

وعدم توفر الاستطاعة سبب في مغفرة الله سبحانه :
« أأشفقتم ان تقدموا بين يدي نجواكم صدقات » ٠
و اذا حملكم خوف الفقر على الا تفعلوا ، واذا قادكم
الضعف الانساني الى الا تنفذوا ذلك؛ ثم ندمتم واستغفرتم

فتدار كوه حتى يتوب الله عليكم ، وأثبتوا حسن نيتكم ،
وصفاء سرير تكم ، لأن تقيموا الصلاة على الوجه الاكمل ،
وتؤتوا الزكاة طيبة بها تقوسكم ، وتطيعوا الله ورسوله في
الصغير والكبير ، وما من ريب في أن الله ، سبحانه : خبير
 بكل ما تعملون ٠

يقول تعالى : « أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدِي نَجْوَاكُمْ
صَدَقَاتٍ ، فَإِذْ لَمْ تَفْعُلُوا ، وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ،
وَأَتُوا الزَّكَاةَ ، وَاطِّعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ »
وبعد : فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انا
سيد ولد آدم ولا فخر ٠ »

ويقول الله تعالى :

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا
وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِأَذْنِهِ ، وَسَرَاجًا مُنِيرًا ، وَبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ
لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ٠ »

هذا جانب من مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم
التي أحبها الله له ، والتي نبه عليها سبحانه في كتابه العزيز .
وجانب آخر أحبه الله تعالى لرسوله يريد ان نبيه :
وهو ان الله ، سبحانه وتعالي ، قد فرض طاعة رسوله ،
صلى الله عليه وسلم ، مقرونة بطاعته ٠ بل لقد ذكرها
الله سبحانه وتعالي وحدها ، باعتبارها فرضا ٠

ويقول الله تعالى : « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا

قضى الله ورسوله امرا ان يكون لهم الخيرة من امرهم ،
ومن يعص الله ورسوله ، فقد ضل ضلالا مبينا » ٠

ويقول تعالى : « يا ايها الذين آمنوا استجيبوا لله
وللس رسول اذا دعاكم لما يحييكم » ٠

ويقول سبحانه : « قل اطيعوا الله واطيعوا الرسول ،
فان تولوا ، فان الله لا يحب الكافرين » ٠

وفي هذه الآية الكريمة اشارة الى ان الاعراض عن
طاعة الله او عن طاعة الرسول : كفر ٠ وما من شك في انه
كفر ، ذلك ان الايمان من اركانه : الايمان برسول الله ،
صلى الله عليه وسلم ، وبأن كل ما أتى به صدق ، فالتولي
عنه : استخفافا ، او جحودا وانكارا ، او عنادا ومماراة ٠
ذلك كله : كفر يخرج به المعرض عن دائرة الاسلام ٠

يقول الله تعالى في طاعة الرسول ، صلوات الله
وسلامه عليه ، حينما يفردء بالحديث :

فلا وربك لا يؤمرون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ،
ثم لا يجدوا في انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما»

ويقول تعالى : فليحذر الذين يخالفون عن امره ان
تصييهم فتنة ، او يصييهم عذاب اليم » ٠

ويجعل سبحانه وتعالى ، طاعة الرسول صلى الله عليه
 وسلم طاغته فيقول سبحانه :

« ومن يطع الرسول فقد اطاع الله » ٠

ويجعل بيته صلوات الله وسلامه عليه بيعة لله ،
فيقول سبحانه :

« ان الذين يباعونك انما يباعون الله ، يد الله فوق
ايديهم ، فمن نكث فانما ينكث على نفسه ، ومن اوفى بما
عاهد عليه الله فسيؤتيه اجرًا عظيما » ٠

وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم انما هي فيما
افترضه الله ، سبحانه او سنة ، وفيما افترضه رسوله
صلوات الله وسلامه عليه او سنة ٠

وقد تابع الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، القرآن
الكريم في بيانه لمنزلة السنة ٠ ووجوب اتباعه ، صلى الله
عليه وسلم ، فيما سنه ، فلقد حد فيما رواه ابو داود
والترمذى عن زيد بن ثابت : « نصر الله وجه امرئ سمع
مقالاتي فحفظها ووعاها ، فأداتها كما سمعها ، فرب مبلغ
أوعى من سامع » ٠

وروى في معناه من طريق آخر :

« رحم الله امرءا سمع مقالتي فأداتها كما سمعها ،
فرب مبلغ أوعى من سامع » ٠

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر الصحابة
ان يبلغ الشاهد منهم الغائب فيقول فيما رواه ابو بكر :
« ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب » ٠
ان يبلغ الشاهد الغائب » ٠

ولقد روى الحاكم والبيهقي ان رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال :

« تركت فيكم امرین لن تضلوا ما تمسکتم بهما ،
كتاب الله و سنتي » ٠

ويقول رسول الله ، صلی الله عليه وسلم في خطبة
الوداع :

« ان الشيطان قد يئس ان يعبد بأرضكم ، ولكن
رضي ان يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من اعمالكم
فاحذروا ، اني تركت فيكم ما ان اعتصمت به لن تضلوا
ابدا : كتاب الله و سنتي » ٠

ويبين رسول الله صلی الله عليه وسلم ، فيما رواه
البخاري عن ابی هریرة ان المسلمين سيدخلون الجنة الا
من لا يرغب منهم في ذلك ٠

يقول صلی الله عليه وسلم : « كل امتی يدخل الجنة
الا من أبی » قالوا : يا رسول الله ومن يأبی ؟ قال : « من
اطاعني دخل الجنة ، ومن عصاني فقد ابی » ٠

مكانة السنة من القرآن

وسنة رسول الله ، صلی الله عليه وسلم ، لها
مكانتها بالنسبة الى القرآن ولها مكانتها بالنسبة الى
التشريع ٠

انها المصدر الثاني - بعد القرآن - للإسلام ، انها
المصدر الثاني للإسلام باعتباره عقيدة ، والمصدر الثاني

للاسلام باعتباره شريعا ، والمصدر الثاني للإسلام باعتباره اخلاقا .

اما منزلتها بالنسبة الى القرآن فانها ، حسبما يقول الامام الشافعي : « وسنن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم مع كتاب الله وجهان :

احدهما : نص كتاب فاتبعه رسول الله كما انزل الله .
والآخر : جملة بين رسول الله فيها عن الله معنى ما اراده بالجملة ، واوضح كيف فرضها عاما ، او خاصا ، وكيف اراد ان يأتي به انباد . وكلاهما اتبع فيه كتاب الله .

وفي كلامة اخرى يبين الامام الشافعي الوجهين فيقول : « أخذهما ما انزل الله فيه نص كتاب ، وبين رسول الله مثل ما نص الكتاب . والآخر: ما انزل الله فيه جملة كتاب ، وبين رسول الله معنى ما اراد » وهذا دليل الوجهان لم يختلف فيما احدهما من الفقهاء ولا من المحدثين ، يقول الامام الشافعي « وهذا دليل الوجهان اللذان لم يختلف فيما » .
والوجه الاول بينه بنفسه .

انه من الواضح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يبين القرآن عقيدة ، وشريعة واخلاقا على وجوه متعددة ، وعلى اتجاهات مختلفة ، وعلى اساليب تختلف في الایجاز والاسهاب ، بحسب حالة المخاطب ، يقول الله تعالى : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » .

والرسول صلى الله عليه وسلم كان يبين للناس ما نزل إليهم بسلوكيه . وبقوله . وبافراراته ، يقول ، صلوات الله عليه وسلامه : « ما نركت شيئاً مساً امركم الله به الا وقد امرتكم به . ولا تركت شيئاً مما نهاكم الله عنه الا وقد نهيتكم عنه » ٠

ولكن بيان رسول الله . صلى الله عليه وسلم ، كان يشتمل ايضاً على بيان ما اجمل في كتاب الله ، وهذا الوجه كثير في السنة ٠

يقول الامام الشافعي . رضي الله عنه ، قال تبارك ونعالي :

« ان الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً » ٠

وقال : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكأن » ٠

وقال : « وأتموا الحجج ، والعمرة لله » ٠

ثم بين على لسان رسوله عدد ما فرض من الصلوات ، ومواعيدها ، وسنتها ، وعدد ركعاتها ، والزكاة ومواعيدها . وكيف عمل الحجج والعمرة . وحيث يزول هذا ويثبت ، وتخالف سنته وتتفق ، ولهذا اشباه كثيرة في القرآن والسنة » إه ٠

وقد كان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يبين كيفية الصلاة بقوله وعمله ، كان يبين اوقاتها ، واركانها ، وعدد ركعاتها ، وافتتاحها وترتيب حركتها بعد الافتتاح ويقول صلى الله عليه وسلم : « صلوا كما رأيتموني اصلبي »

ويبيّن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، مناسك
الحج : اركانه ، وواجباته ، وستته . ويقول : « خذوا عنِي
مناسككم » .

وفرض الله ، سبحانه وتعالي ، الزكاة ولم يبيّن مقدارها
لها ، لم يذكر بالتفصيل الزروع والشمار والأموال التي
تجب فيها الزكاة فيبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك
كله وطبقه .

ولقد بيّنت السنة ان القاتل لا يرث ، وان الوصيّة
لا تكون في اكثر من الثالث ، وان الدين يقدم على الوصيّة،
هذا وكثير غيره مما بيّنته السنة .

عن عمران بن حصين ، رضي الله عنه : انه قال لرجل
يريد ان يقتصر على القرآن دون السنة : أනاك امرؤ احمق ،
أتجد في كتاب الله الظهن اربعا لا يجهر فيها بالقراءة ، ثم
عدد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا . ثم قال : أتجد ذلك
في كتاب الله مفسرا ؟ اذ كتاب الله ابهم هذا ، قال والسنة
تفسر ذلك .

ولقد قيل لمطرف بن عبد الله بن الشعير : لا تحدثونا
 الا بالقرآن .

فقال : والله ما نبغى بالقرآن بدلًا ، ولكن نريد من
هو أعلم منا بالقرآن .

ويقول الإمام الشافعي رضي الله عنه : « ومن قبل عن
رسول الله فعن الله قبل ، لما افترض الله من طاعته » .

مكافحة المسنة من التشريع :

ورسول الله ، صلى الله عليه وسلم : يشرع - عن الله تعالى - فيما لا نص فيه من كتاب الله .
روى الإمام أحمد ، وأبو داود ، والترمذمي وغيرهم : أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بعث معاذ بن جبل ، رضي الله عنه إلى اليمن فقال له :

« كيف تقضي إذا عرض لك قضاء ؟ »

قال : أقضى بكتاب الله .

قال « فان لم يكن في كتاب الله ؟ »

قال : فبسنة رسول الله .

قال : « فان لم يكن في سنة رسول الله ؟ »

قال : اجتهد رأيي ولا آلو .

فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على صدره وقال : « الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضي رسول الله » .

وسيدنا عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه في رسالته في القضاء إلى أبي موسى الأشعري ، رضي الله عنه والتي بدأها بقوله : « سلام عليك ، أما بعد فان القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة » .

يقول سيدنا عمر في هذه الرسالة : « الفهم الفهم فيما تجلجع في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة » .

فجعل سيدنا عمر السنة مصدرا من مصادر التشريع ،
ولقد سئل سيدنا ابو بكر ، رضي الله عنه ، عن
ميراث الجدة فقال : « ما لك في كتاب الله من شيء ولكن
أسائل الناس » ، فسألهم ، فقام المغيرة بن شعبة ، ومحمد بن
مسلم ، فشهدوا : أن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، اعطاهما
السدس .

ولم يكن سيدنا عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه
يعلم سنة الاستئذان حتى اخبره بها ابو موسى رضي الله
عنه (١) .

ولم يكن يعلم ان المرأة ترث من دية زوجها حتى كتب
اليه الضحاك بن سفيان ، امير رسول الله ، صلى الله عليه
وسلم ، على بعض البوادي يخبره ان رسول الله ، صلى
الله عليه وسلم : « ورث امرأة أشيم الضبابي من دية
زوجها » .

ولم يكن يعلم حكم الم Gors في الجزية حتى اخبره
عبدالرحمن بن عوف : ان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم
قال : سنوا بهم سنة اهل الكتاب » .

ولما قدم « سرغ » وبلغه ان الطاعون بالشام ، استشار
المهاجرين الاولين الذين معه ، ثم الانصار ، ثم مسلمة الفتح
فشار كل عليه بما رأى ، ولم يخبره احد بسنة ، حتى قدم

(١) فبين له ان الاستئذان ثلاث ، فإذا لم يؤذن له اصرف .

عبد الرحمن بن عوف ، فأخبره بسنة ، رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، في الطاعون وانه قال : « اذا وقع بأرض واتس بها فلا تخرجوا فرارا منه ، واذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه » .

وهذا عثمان ، رضي الله عنه ، لم يكن عنده علم بأن المتوفي عنها زوجها تعتد في بيت زوجها ، حتى حدثته الفريعة بنت مالك ، اخت ابي سعيد الخدري بقضيتها لما توفي زوجها ، وان النبي ، صلى الله عليه وسلم ، قال لها : « امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب اجله » فأخذ به عثمان .

ولقد روى الحاكم ما يلي :

« حرم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، اشياء يوم خيير منها الحمار الاهلي ، وغيره » .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يوشك ان يقعد الرجل منكم على اريكته ، فيحدث بحذيري ، فيقول : ببني وبنكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه حلالا استحللناه ، وما وجدنا فيه حراما حرمناه . وان ما حرم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم كما حرم الله » .

ويقول رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فيما رواه ابو داود عن عبيد الله بن ابي رافع عن ابيه : « لا ألفين احدكم متکئا على اريكته يأتيه الامر من امري ، مما امرت

به ، او نهيت عنه فيقول : لا ادرى ، ما وجدنا في كتاب الله
اتبعناه » .

روى ابو داود والترمذى وابن ماجة عن المقدام بن
معد يكرب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« ألا اني اوتت القرآن ومثله معه ، الا يوشك رجل
شبعان على اريكته يقول : عليكم بهذا القرآن فما وجدتم
فيه من حلال فاحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ،
ألا وان ما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حرم
الله » .

وعن حسان بن عطية انه قال : « كان جبريل ، عليه
السلام ، ينزل على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ،
بالستة كما ينزل عليه بالقرآن ، ويعلمه ايها كما يعلمه
القرآن » .

وعن مكحول قال : قال رسول الله ، صلى الله عليه
وسلم : « آتاكم الله القرآن ومن الحكمة مثلية » أخرجهما
ابو داود في مراضيه .

وقيل لمطرف بن عبد الله بن الشخير : لا تحدثونا الا
بالقرآن — فقال ، والله ما نبغى بالقرآن بدلًا ، ولكن نريد من
هو اعلم منا بالقرآن .

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « لعن الله
الواشمات ، والمستوشمات ، والمتنميات والمتفلجات للحسن
المغيرات خلق الله » ، قبلغ ذلك امرأة من بنى اسد ، فقالت :

يا ابا عبد الرحمن بلغني أنك لعنت كيت، وكيفت فقال «ومالي لا ألعن من لعنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في كتاب الله»، فقالت المرأة: لقد قرأت ما بين لوحبي المصحف فما وجدته، فقال لئن كنت قرأت فقد وجدته. أما قرأت: «وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فاتهوا»؟ قالت: بلى، قال: فإنه قد نهى عنه رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

وبعد ان يذكر الامام الشافعي الوجوه الثلاثة:

١ - بيان السنة للكتاب على ما في الكتاب.

٢ - بيان السنة لمجمل الكتاب.

٣ - ما بين رسول الله فيما ليس فيه نص كتاب.

يقول: وذلك ما نريد ان ننتهي اليه، وهو بين في وضوح من كل ما ذكرنا - وأي هذا كان، فقد بين الله انه فرض فيه طاعة رسوله، ولم يجعل لأحد من خلقه عذرا بخلاف امر عرفه من امر رسول الله، وان قد جعل الله بالناس كلهم الحاجة اليه في دينهم، واقام عليهم حجته بما دلهم عليه من سنن رسول الله معاني ما اراد الله بفريائه في كتابه، ليعلم من عرف منها ما وصفنا: ان سنته صلى الله عليه وسلم، اذ كانت سنة مبينة عن الله معنى ما اراد من مفروضة فيما فيه كتاب يتلونه، وفيما ليس فيه نص كتاب آخر: - فهي كذلك اين كانت، لا يختلف حكم الله ثم حكم رسوله، بل هو لازم بكل حال.

الفصل الثاني

تدوين السنة

بدأ رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، في العهد المكسي يبشر بالقرآن الكريم ، ورسالة التوحيد سرا ثم جهرا ، وكان الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، يلقي بالآضواء نلها على القرآن :

١ - ذلك أن القرآن كلام الله، سبحانه وتعالى، وهو بأسلوبه معجز ، وهو بمعناه يأخذ بالأفئدة ، وهو بعظاته يملك القلوب ، وهو بمنطقه يسيطر على العقول .

٢ - ثم ان موضوع القرآن في هذه الفترة كان موضوعا محددا : لقد كان جملة من القضايا تتصل بالغيب، الغيب الالهي ، او - بتعبير آخر - توضح العقيدة .
توحيدا ، ورسالة ، وبعثا .

وكان اسلوب القرآن في ذلك واضح لا لبس فيه ، مبينا بيانا سافرا .

٣ - وخشي رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ان يضيف بعض الناس شيئا من كلامه الى القرآن ويخلطوه به ، وربما اسرفو في هذه الاضافة : فلا يستبين الناس الفوائل والفرق بين الاسلوب القرآني الالهي، والاسلوب

النبي ، حينما يتلو نهما ، في اول العهد بالاسلام ، ممترجين
للتمييز بينهما ٠

ان معالم الاسلوب القرآني واضحة ، وكلام الله ،
سبحانه اينما كان يتميز بصفات تجعله يسمى بمنعزل من غيره
ولكن لا بد من ايجاد الفرصة الكافية لترتسم هذه
المعالم في النقوس: أي لا بد من تقديم القرآن خالصا صافيا
لا يمتزج به غيره ٠

لا بد من تقديمها كما انزل في ثوبه الالي البحث حتى
تصبح المعالم معالم الاعجاز المعجز ، بينما سافرة ٠
من اجل ذلك نهى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ،
عن كتابة حديثه ، صلوات الله وسلامه عليه ٠

٤ - على ان هذه الآيات القرآنية ، في العهد المكي ،
وهي تشرح التوحيد : توحيد الله في الذات ، وتوحيد الله
في الصفات ، انها وهي تشرح الهمينة الالهية على الكون ،
على العالم : جميع العالم ، ليست : في حاجة الى بيان
أوضح او الى تعبير اقوى ٠
بل انه لا يتأتى ان يكون هناك بيان اوضح او تعبير
اقوى ٠

انها وهي تهدم الشرك ، وتدرك حضوره ، فتقول مثلا:
«قل : الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ءاًللله خير
اما يشركون ؟ أمن خلق السموات والارض وأنزل لكم من
السماء ما ءافتتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم ان

تنبتو شجرها ، إله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون » :
أمن جعل الأرض قرارا ، وجعل خلالها انهارا ،
وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا ، إله مع الله ؟
بل أكثرهم لا يعلمون .

أمن يحب المضطرب اذا دعاه، ويكشف السوء، ويجعلكم
خلفاء الأرض ، إله مع الله ؟ قليلا ما تذكرون .
أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ، ومن يرسل
الرياح بشرا بين يدي رحمته ، إله مع الله ؟ تعالى الله عما
يشركون .
أمن يبدوا الخلق ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السماء
والارض ، إله مع الله ؟!

قل : هاتوا برهانكم اذ كنتم صادقين » .
انها ، حينما تقول ذلك ، لا تحتاج الى شرح او تفسير
وهي ، حينما تتحدث عن البعث فتقول : « ونفح في
الصور ، فصعق من في السموات ومن في الأرض الا من شاء
الله ، ثم نفح فيه اخرى ، فاذا هم قيام ينظرون ، واشرقت
الارض بنور ربها ، ووضع الكتاب ، وجيء بالتبين
والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون ، ووفيت كل
نفس ما عملت وهو اعلم بما يفعلون » .
ليست بحاجة الى شرح او تفسير .

وهي : حينما تتحدث عن الرسول صلى الله عليه
 وسلم ، ونزول القرآن عليه فتقول :

« نزل به الروح الامين ، على قلبك لتكون من المندرين ، بلسان عربي مبين » ليست بحاجة الى شرح او تفسير •

ثم هي ، حينما تقول ترغيبا وتبشيرا :

« ان اصحاب العجنة اليوم في شغل فاكهون » •

هم وازواجهم في ظلال على الارائك متكتئون •

لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون •

سلام قوله من رب رحيم » •

ليست بحاجة الى شرح او تفسير •

وحيثما تقول موعظة وانذار :

« ويوم يحشر اعداء الله الى النار فهم يوزعون » •

حتى اذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وابصارهم

وجلودهم بما كانوا يعملون •

وقالوا لجلودهم : لم شهدتم علينا ؟ قالوا : أنطقنا

الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم اول مرة واليه ترجعون

: وما كنتم تستترون ان يشهد عليكم سمعكم ولا

ابصاركم ولا جلودكم ولكن ظنتم : ان الله لا يعلم كثيرا

مما تفعلون •

وذلكم ظنكم الذي ظنتم . بربكم ارداكم فأصبحتكم

من الخاسرين ، فان يصبروا فالنار مثوى لهم ، وان يستغبوا

فما هم من المعتدين » ليست بحاجة الى شرح او تفسير •

٥ - ثم ان الموضوعات التي تتحدث فيها هذه الآيات

المكية : موضوعات غبية ، والمواضيعات الغبية دققة وغاية في الدقة ، فهل اذا تحدث الرسول صلى الله عليه وسلم . في هذه الموضوعات ، وتقل عنده هؤلاء شفهيا - وهم حديثوا عهد بالاسلام وقربيو عهد بالجاهلية الوثنية . . . هل سيحسنون التعبير عنها او سيقولونها كما تحدث بها الرسول صلى الله عليه وسلم ، في دقته الدقيقة ؛ وفهمه الواعي عن الله ، سبحانه وتعالى ؟

من اجل كل ذاك ، امر رسول الله ، صلى الله عليه وسلم . ألا يكتب عنه غير القرآن .
وحكمة هذا الامر وتعليله : واضح كل الوضوح مما ذكرنا .

ولكن في فترة العهد المدني تغير الوضع :
ها هو ذا الاسلام ينتشر انتشارا واسعا وسرعا : وهذا هي ذي الامة الاسلامية الناشئة المؤمنة القوية : تبعث الامل واسعا في ان دين الله سينتشر في الآفاق ، وسيعم نوره الاقطار ، وستحطم كلمة الحق صروح الباطل ، وسيتم الله نوره ولو كره المشركون ، وسيعم للألوه رغم انوف الكافرين .

ومن اجل هذه الامة بدأ الوحي ينزل ارسالا ، ارسالا بالتشريع في جميع الوانه : تشريع دولي ، وتشريع جنائي ، وتشريع مدنى ، وتشريع للعبادة ، وتشريع للأحوال الشخصية .

لقد بدأ التشريع الالهي ينظم حياة الفرد : عبادة ومعاملة : حياته مع نفسه ، وحياته مع امته ، وحياته مع الله تعالى .

لقد أخذ ينظم حياة الانسان منذ ان يستيقظ في الصباح الى ان ينتهي به الامر الى الصحو من جديد في صباح تال .

وينظم حياته من اسبوع الى اسبوع ، ومن شهر الى شهر ، ومن عام الى عام .
وينظم حياته في ذاته ، وينظم حياته في اسرته ، وينظم حياته في مجتمعه .

وينظم حياة المجتمع الاسلامي كله في الكون كله .
وما كان يتاتى ان يتعرض الوحي في ذلك للتفصيلات المفصلة ، ولا للجزئيات الجزئية التي لا تحده ولا تحصى ،
ولكنه كان يفصل تفصيلا يشبه ان يكون تاما في الامور التي تكون عادة مثار النزاع ، وخصوصا الماليات : كالميراث وكتابه الدين مثلما .

ويضع قواعد عامة شاملة تتضمن الجزئيات المتعددة ،
في موضوعات اخرى وكان لا بد من ان يستفيض الرسول صلى الله عليه وسلم في البيان والشرح والتفسير .

وكان المسلمون قد ألقوا الجو الاسلامي ، وألقوا الاسلوب القرآني ، عرفوا مفهوم الشرك ومفهوم التوحيد ، وتبينت لهم الفروق الفاصلة بين العلم والجهل ، وبين الاسلام

والجاهلية ، وبين توجيهه الوجه للذى فطر السموات والارض
وتوجيهه للاصنام او الشهوات او اللهو ، ولم يكن هناك
من خوف على خلط اسلوب القرآن الكريم بغيره .

وكان لا بد من تقدير شروح الرسول ، صلى الله
عليه وسلم ، وتفسيراته . لم تكن هناك ظروف توجب عدم
كتابة الحديث ، وكانت هناك ظروف توجب كتابته .
ومن أجل ذلك اباح الرسول ، صلى الله عليه وسلم ،
كتابته بعد ان كان قد نهى عنها .

وببدأ الصحابة ، رضوان الله عليهم ، يكتبون .
روى الإمام البخاري ، في كتاب العلم ، باب كتابة
العلم قال :

« حدثنا محمد بن سلام ، قال : أخبرنا وكيع عن
سفيان عن مطرف عن الشعبي ، عن أبي جحيفة ، قال : قلت
لعلي : هل عندكم كتاب ؟

قال : لا ، الا كتاب الله ، او فهم أعطيه رجل مسلم ، او
ما في هذه الصحيفة .

قلت : فما في هذه الصحيفة ؟

قال : العقل ، وفكاك الاسير ، ولا يقتل مسلم بكافر .

ويروي الإمام البخاري :

حدثنا أبو نعيم : الفضل بن دكين ، قال : حدثنا شيبان
عن يحيى عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة :
ان خزاعة قتلوا رجلا من بنى ليث ، عام فتح مكة

بقتيل منهم قتلواه ، فأخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم ،
فركب راحته ، فخطب فقال :

« إن الله جس عن مكة القتل ، او الغيل : شك ابو عبد الله ، وسلت عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، ألا وانها لم تحل لأحد قبلي ولم تحل لأحد بعدي ، ألا وانها حلت لي ساعة من نهار ألا وانها ساعتي هذه حرام ، لا يختلي شوكتها ، ولا يعهد شجرها ، ولا تلتفت ساقطتها الا لمنشد ، فمن قتل فهو بخير النظرين : اما ان يعقل واما ان يقاد اهل القتيل .

فجاء رجل من اهل اليمن ، فقال : أكتب لي يا رسول الله .

قال أكتبوا لأبي فلان .

قال رجل من قريش : الا الاذخر ، يا رسول الله ،
فانا نجعله في بيوتنا وقبورنا .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : الا الاذخر ، الا الاذخر .

قال ابو عبد الله : يقال : يقاد ، بالقاف .

فقيل : لأبي عبد الله : أي شيء كتب له ؟

قال : كتب له هذه الخطبة .

ويقول البخاري :

حدثنا علي بن عبد الله ، قال حدثنا سفيان ، قال ،
حدثنا عمرو ، قال اخبرني وهب بن منبه ، عن أخيه قال :

سمعت ابا هريرة يقول : ما من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، أحد اكثرا حديثا عنه مني الا ما كان من عبد الله بن عمرو ، فانه كان يكتب ولا اكتب ٠ تابعه معمر ، عن همام ، عن ابي هريرة » انتهى عن البخاري ٠

ولقد اشتهرت كتابة عبد الله بن عمرو لكل ما يصدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى لقد نوّقش في ذلك من بعض القرشيين : يقول رضي الله عنه حبيب مايروى في سنن الدارمي وغيره كنت اكتب كل شيء اسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أريد حفظه ، فنهتني قريش ، وقالوا : تكتب كل شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بشر ، يتكلم في الغضب والرضا ، فأمسكت عن الكتاب ، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأوّلما باصبعه الى فيه ، وقال : اكتب ٠ فهو الذي نفسي بيده ما خرج منه الا حق ٠ وروي عن ابي هريرة — كما يذكر الترمذى — ان رجلا من الانصار كان يشهد حديث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم فلا يحفظه ، فيسأل ابا هريرة ، فيحدثه ، ثم شكى قلة حفظه الى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : استعن على حفظك بيمينك اي بالكتابة ٠

وروي عن رافع بن خديج ، كما يذكر في كتاب : « تقييد العلم » اله قال : — قلنا يا رسول الله ، انا نسمع

منك اشياء ، أفنكتبها ؟ قال : « أكتبوا ولا حرج » .
على انه قد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
انه كتب كتاب الصدقات والديات ، والفرائض ، والسنن ،
لعمر بن حزم وغيره ، كما يروي ذلك صاحب كتاب
« جامع بيان العلم وفضله » .

هذا بعض ما كان من الصحابة في عهد الرسول صلى
الله عليه وسلم . وتكثر الروايات فيما كان من كتابة
الصحابة بعد انتقاله ، صلوات الله وسلامه عليه الى الرفيق
الاعلى .

ففي مسند الامام احمد عن أبي عثمان النهدي قال ،
كنا مع عتبة بن فرقان ، فكتب اليه عمر بأشياء يحدها عن
النبي صلى الله عليه وسلم ، فكان فيما كتب اليه :

ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : - « لا
يلبس الحرير في الدنيا الا من ليس له في الآخرة منه شيء
الا هكذا » .

وقال باصبعيه السبابية والوسطى : قال أبو عثمان :
فرأيت أنها أزرار الطيالسة حين رأينا الطيالسة .

ولقد كان الصحابة ينقل بعضهم عن بعض ، فعروة بن
الزبير رضي الله عنه ، ينقل عن خالته ، السيدة عائشة ،
رضوان الله عليها ، فتقول له : يابني بلغني انك تكتب عني
الحديث ، ثم تعود فتكتبه .

فقال لها : أسمعه منك على شيء ، ثم اعود فأسمعه
على غيره .

فقالت : هل تسمع في المعنى خلافا ؟
قال : لا

قالت : لا بأس بذلك .

وبشير بن نهيك يكتب عن أبي هريرة : ويجيزه أبو
هريرة بالرواية عنه .

يقول بشير — كما يذكر كتاب : « السنة قبل
التدوين » نقلًا عن كتاب : « المحدث الفاضل » وغيره —
أتيت أبا هريرة بكتابي الذي كتبته ، فقرأته عليه ، فقلت :
هذا سمعته منك ؟

قال : نعم .

وكان لابن عباس ، رضي الله عنهما الواح يكتب فيها
عن الصحابة : مثل أبي رافع صاحب رسول الله ، صلى
الله عليه وسلم .

بل لقد وصل الامر بآنس رضي الله عنه الذي لازم
رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ملازمة تكاد تكون تامة
طيلة عشر سنوات انه كان ي ملي الحديث على جموع من
الطلاب ، فاذا كثر عليه الناس ، واحتاجوا الى صحف
يكتبون فيها ، جاء اليهم بها من عنده فألقاها اليهم ، ثم قال:
هذه أحاديث سمعتها وكتبتها عن رسول الله صلى الله عليه
 وسلم ، وعرضتها عليه .

وكان يقول ، رضي الله عنه ، لبنيه : يا بني قيدوا
العلم بالكتاب .

وكان الصحابة يتراسلون في الأحاديث : يستفسرون
ويتذكرون ، فمعاوية بن أبي سفيان ، رضي الله عنه ، يكتب
للمغيرة بن شعبة رضوان الله عليه ، عدة مرات ، يستفسر
عن بعض ما يرويه المغيرة عن رسول الله صلى الله عليه
 وسلم .

فيجيبه المغيرة بن شعبة مرة عما كان رسول الله صلى
الله عليه وسلم ، مثلا ، يقول في ختام كل صلاة :
« اللهم لا مانع لما اعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا
راد لما قضيت ولا ينفع ذا الجد منك الجد » .

ويجيئه مرة أخرى بأن رسول الله صلى الله عليه
 وسلم ، نهى عن قيل وقال ، وكثرة السؤال ، واضاعة المال .
ويكتب زياد بن أبي سفيان إلى السيدة عائشة رضوان
الله عليها ، يسألها عن مسائل تتعلق بالحج ، ويدرك لها
فتوى ابن عباس رضي الله عنه . فتكتب له بما كان ، صلى
الله عليه وسلم ، يفعله في الحج .

ويصف المرحوم الاستاذ السباعي بعض الجهود التي
قام بها الصحابة لجمع الحديث فيقول في نهاية حديثه عن
تلك الجهود :

فلمَّا كَانَ عَهْدُ عُثْمَانَ سَمِحَ لِلصَّحَابَةِ أَنْ يَتَفَرَّقُوا فِي
الْأَمْسَارِ ، وَاحْتَاجَ النَّاسُ إِلَى الصَّحَابَةِ ، وَخَاصَّةً صَفَارَهُمْ ،

بعد ان اخذ الكبار يتناقصون يوما بعد يوم، فاجتهد صغار الصحابة بجمع الحديث من كبارهم ، فكانوا يأخذونه عنهم ٠

كما ذان يرحل بعضهم الى بعض من اجل طلب الحديث فقد أخرج البخاري في الادب المفرد ، واحمد ، والطبراني ، والبيهقي ، واللفظ له ، عن جابر بن عبد الله قال ٠ بلغني حديث عن رجل من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم اسمعه ، فابتعدت بعيرا فشددت عليه رحلي ، ثم سرت اليه شهرا حتى قدمت الشام ، فاذا هو عبد الله بن ابي انس الانصاري ، فأتيته ، فقلت له :

حديث بلغني عنك انك سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في المظالم لم اسمعه ، فخشيت ان اموت ، او تموت قبل ان اسمعه ٠

فقال : سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول « يحشر الناس غلا بهما » ٠

قلنا : وما لهم ؟

قال : ليس معهم شيء ، فيناديهم نداء يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب : أنا الديان لا ينبغي لأحد من اهل النار ان يدخل النار واحد من اهل الجنة عنده مظلمة حتى أقتضها منه ٠

ولا ينبغي لأحد من اهل الجنة ان يدخل الجنة واحد

من اهل النار يطلب به بمظلمة حتى اقتضها منه حتى اللطمة .
قلنا : كيف ؟ وانما نأتي الله عراة غلا بهما ؟
قال بالحسنات والسيئات .

وأخرج البيهقي وابن عبد البر عن عطاء بن أبي رباح
ان ابا ايوب الانصاري رحل الى عتبة بن عامر يسألة عن
حديث سمعه من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لم
يبق احد سمعه منه غيره ، فلما قدم الى منزل مسلمة بن
مخلد الانصاري — وهو امير مصر — فخرج اليه فعائقه ،
ثم قال :

ما جاء بك يا ابا ايوب ؟

قال : حديث سمعته من رسول الله ، صلى الله عليه
 وسلم ، في ستر المؤمن .
 فقال : نعم ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
 يقول : —

« من ستر مؤمنا في الدنيا على كربته ، ستره الله يوم
القيمة » .

ثم انصرف ابو ايوب الى راحلته . فركبها راجعا الى
المدينة ، فما ادركته جائزة مسلمة الا بعريش مصر » [١٥]
ولقد وقر في اذهان الناس ، بصورة راسخة ان السنة
لم تدون الا في القرن الثاني ، ومن اجل اقتلاع هذه
الفكرة الخاطئة أطلنا في نقل بعض النصوص التي تثبت
الحقيقة ، وهي ان السنة دونت في القرن الاول : في نهد

الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفي عهد الصحابة الاجلاء
ومن اجل زيادة الامر وضوها ، ومن اجل تأكيد
الحقيقة في الاذهان : ننقل هنا ايضا رأي الاستاذ الجليل ،
السيد سليمان الندوی ، كبير علماء مسلمي القارة الهندية ،
هذا العصر : نقله عن كتابه النفيس : « الرسالة المحمدية »
وهو محاضرات ألقاها في جامعة مدراس . يقول :

وانني اكشف النقاب ، لاول مرة في ناديكم هذا ، بأن
من زعم ان الاحاديث النبوية لم تدون الى مائة سنة او
تسعين سنة قد أخطأ ، والتاريخ يعارضه .

والسبب في هذا الخطأ ظنهم ان اول كتاب في الحديث
النبوی : « كتاب الموطأ » مالک بن انس ، واول كتاب في
السيرة كتاب المغازي لابن اسحاق، وهذا الامام الجليلان
كانا معاصرین ، وتوفي الاول سنة ١٧٩ هـ والثاني سنة
١٥١ هـ فاعتبروا العقود الاولى من القرن الثاني بدایة
تدوين الاخبار والسير .

والامر ليس كذلك . فان بوادر التدوين ابتدأت قبل
ذلك بكثير ، وقد كان امير المؤمنين عمر بن العزيز المتوفى
سنة ٩٩ عالما جليلا ، ولي امارة المدينة ثم استخلف سنة ١٠١
وقد عهد الى القاضي ، ابي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم
— الذي كان اماما في الحديث والخبر — ان يبدأ في تدوين
سنن النبي صلى الله عليه وسلم واخباره ، لانه خاف على
العلم ان يرفع شيئا فشيئا .

وخف دوس العلم وعفاه ، وقد ذكر هذا في تعلیقات البخاري ، والموطأ لمالك ، والمسند للدارمي . فقام بذلك ابو بكر بن حزم ، وكتبت الاحاديث والاخبار والسنن في القراطيس ، وارسلت الى دار الخلافة بدمشق ، ونسخت في الصحف والكتب ، وبعث بها الى البلاد الاسلامية وكبريات المدن يومئذ (مختصر جامع بيان العلم للحافظ بن عبد البر ص ١٣٨ طبع بمصر) .

فأبو بكر هذا الذي علمتم مكانته من العلم والفضل . وكان قاضيا بالمدينة المنورة ، هو الذي اختاره عمر بن عبد العزيز لهذا العمل الجليل ، لعلمه وفضله ، ولأن خالته عمرة كانت من كبريات تلميذات ام المؤمنين عائشة ، وكان ماروته خالته عمرة عن ام المؤمنين عائشة محفوظا عنده . فأوعز اليه عمر بن عبد العزيز بتدوين مرويات خالته ، وقد اختصها بالذكر في كتابه اليه .

ويتابع السيد سليمان الندوی حديثه فيقول :
وامر صلی الله علیہ وسلم ، فكتبت احکام الزکاة
وما تجب فيه ، ومقادیر ذلك ، فكتبت مشرحة مفصلة في
صفحتین ، وبعث بصورة ذلك الى امراء البلاد وولاتها ،
وبقیت محفوظة في بیت ابی بکر الصدیق ، وابی بکر بن
عمرو بن حزم . (الدارقطنی في كتاب الزکاة ٢٠٩) وكان
عند عمال الزکاة رسائل فيها احکام الزکاة
وكان مرويات عبد الله بن عباس کراریس عدّة .

وجاءه قوم من اهل الطائف بكراسة منها ليروها عنه
(العلل للترمذى ص ٦٩١) ٠

وكان سعيد بن جبیر يكتب روایات عبد الله بن عباس
(الدارمي ٦٩) وبقيت صحیفة عبد الله بن عمرو (الصادقة)
موجودة عند حفیده : عمرو بن شعیب « سنن الترمذی »
(ص ٦١ ، ١١٣) ٠

كانوا يضعفون عمرو بن شعیب ، لأنه يروي من
الصحیفة ، وكان ينبغي له ان يروي من حفظه ٠
وجمع وہب التابعی روایات جابر بن عبد الله ، وكانت
عند اسماعیل بن عبد الکریم ، وضفتواه لأجل ذلك (تهذیب
التهذیب لابن حجر : ٣١٦) ٠

وروى سليمان بن سمرة بن جندب ٠ انه كان عند ابيه
صحیفة فيها احادیث ٠ وكذلك روى ابنته حبیب بن سليمان
(تهذیب التهذیب ٤ : ١٩٨) ٠

وجمع همام بن منبه روایات ابی هریرة ، وهو اکثر
الصحابۃ روایة ، واواعهم حفظا لاحادیث الرسول ، صلى
الله عليه وسلم ، فصارت تعرف صحیفته بين المحدثین بصیحیفة
همام ، وقد اوردتها الامام احمد بن حنبل في الجزء الثاني من
مسنده (ص ٣١٢ - ٣١٨ الطبعة الاولی) ٠

وكذلك بشیر بن نھیک : كتب مرویاته عن ابی هریرة
في كتاب وقرأه عليه ٠
(كتاب العلل للترمذی ص ٦٩١ والدارمي ص ٦٨)

والسنن الكبرى للبيهقي ١٠ : ٢٨٠)

وذكر ابن حجر في كتابه فتح الباري : ان ابا هريرة
جاء برجل الى بيته واراه اوراقا وقال : هذه رواياتي . وقال
الذى روى ذلك : انها لم تكن مكتوبة بيده (فتح الباري
١ : ١٨٤ - ١٨٥) .

وكان انس بن مالك - وهو معروف بكثرة الرواية -
يقول لا ولاده يا بني اكتبوا العلم وقideoه بالكتابة (الدارمي
ص ٦٨) .

وكان تلميذه « ابان » يكتب رواياته بين يديه .
(الدارمي ص ٦٨) .

وروى عن سلمى قالت : رأيت عبد الله بن عباس
يستعملني ابا رافع خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
ما كان صلى الله عليه وسلم ، يفعل او يقول (طبقات ابن
سعد ٢/٢ : ١٢٣) .

والواقدي وهو من متقدمي المصنفين في السيرة
النبوية يقول : رأيت عند عبد الله بن عباس الكتاب الذي
ارسله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الى المنذر بن ساوي
سيد عمان مع كتب اخرى (زاد المعاد ٢ : ٥٧) .

وفي تاريخ الطبرى : ان عروة بن الزبير كتب جميع ما
كان في غزوة بدر مفصلا الى عبد الملك الخليفة الاموي
(الطبرى ١٢٨٥) .

ويقول سعيد بن جبیر التابعى : كنت اكتب على الاقتاب

ما اسمعه في الليل من عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس ،
فإذا أصبحت كتبته واضحاً (الدارمي ص ٦٩)
وكان أصحاب البراء بن عازب يكتبون عنده رواياته
(الدارمي ٦٩)

وكان نافع - وقد صحب ابن عمر ثلاثين سنة - يملي
على الناس (الدارمي ص ٦٩)

وعن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود انه اخرج
كتاباً وقال : وأيم الله ، هذا ما كتبته يد ابن مسعود .
(جامع العلم لابن عبد البر ص ١٧)

وتتابع الحديث في الموضوع على الرغم من ان الامر
اصبح واضحاً فنضيف الى ما سبق .
أن مروان قد خطب في الناس فذكر مكة وحرمتها ،
فقال رافع بن خديج بصوت يسمعه الناس .

والمدينة حرمها رسول الله ، صلى الله عليه وسلم
وهو مكتوب عندنا في أديم خولا في ان شئت أن تقرئه
 فعلنا .

فناداه مروان أجل قد بلغنا ذلك . (مسنـد الإمامـ احمد
ابن حـنـيـلـ ٤ـ :ـ ١٤١ـ)

وارسل الضحاك بن قيس كتاباً إلى النعمان بن بشير
يـسـأـلـهـ فـيـهـ عـنـ السـوـرـةـ التـيـ كـانـ رـسـوـلـ اللـهـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ
وـسـلـيـمـ يـقـرـؤـهـ فـيـ صـلـاتـ الـجـمـعـةـ غـيـرـ سـوـرـةـ الـجـمـعـةـ .

فكتب اليه يقول : كان يقرأ « هل أتاك » (صحيح مسلم) ٠

وكتب عمر بن الخطاب الى عتبة بن فرقد كتاباً ذكر فيه ٠ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن لبس الحرير (صحيح مسلم) ٠

« ويقول مجاهد : رأيت عند عبد الله بن عمرو كتاباً فسألته : ما هذا ؟ فقال : هذه « الصادقة » فيها ما سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليس في ذلك يبني وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم احد » ٠

ولما ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عمرو بن حزم اليمن وبعثه اليها اعطاء احكاماً مكتوبة في الفرائض والصدقات والدييات « كنز العمال ٣ : ١٨٦ » ٠

وتلقى عبد الله بن حكيم كتاباً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيه أحكام الحيوانات الميتة (المعجم الصغير للطبراني ص ٢١٧) ٠

ولما اراد وائل بن حجر ان يرجع الى بلاده حضرموت ناوله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كتاباً فيه احكام الصلاة والصوم والربا والخمر وغير ذلك (الطبراني ص ٢٤٢) ٠

ولما وجه امير المؤمنين عمر بن الخطاب السؤال الى اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ان كان عند احد منهم سنة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، في نصيب المرأة

من دية زوجها قام الضحاك بن سفيان فقال :
نعم عندنا كتاب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
يبين فيه ذلك (الدار قطى ٢ : ٤٨٥) (١) .

وقد بلغ عدد الصحابة رضي الله عنهم في آخر حياة النبي صلى الله عليه وسلم — عندما حج حجة الوداع — مائة الف ، ومن هؤلاء عشرة آلاف صحابي مذكورة اسماؤهم واحوالهم في كتب التاريخ التي افردت لتدوين احوالهم خاصة .

وان التاريخ لم يهتم بتدوين احوالهم ولم يحفظ لنا شئونهم الا لأن كل واحد منهم حفظ شيئاً من اقوال النبي صلى الله عليه وسلم ، وافعاله وتصرفاته وهديه وسيرته .

لقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سنة ١١ من الهجرة النبوية ، وبقي فريق من كبار الصحابة بعده الى سنة اربعين ، وبقي بعد ذلك من الصحابة ، الذين كانوا احدثاً في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، عدد غير قليل . فلما انقرض ذلك الجيل لم يبق من الصحابة احد ، وانطفأ كل سراج او قد بنور النبوة .

واليكم اسماء آخر من مات من الصحابة ، والبلاد التي ماتوا فيها ، وسنوات وفاتهم .

(١) انظر : «السنة قبل التدوين» والسنة ومكانتها في التشريع الاسلامي ، ورجال الفكر والدعوة .

آخر الصحابة موتاً	المدن التي توفوا فيها	سنة الوفاة
١ - أبو أمامة	الشام	٨٦
٢ - عبد الله بن الحارث بن جزء	مصر	٨٦
٣ - عبد الله بن أبي أوفى	الكوفة	٨٧
٤ - السائب بن يزيد	المدينة	٩١
٥ - أنس بن مالك	البصرة	٩٣

وانس بن مالك هذا الذي كان آخر من بقي من الصحابة كان الخادم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، استمر في خدمته عشر سنوات متواترة .

ومعظم هذه الثروة الحديبية كما يقول الاستاذ الجليل ابو الحسن الندوبي — قد كتب ودون بأقلام رواة في العصر الاول ، وقد يزيد ما حفظ في الكتب والدفاتر كتابة وتحريرا في العصر النبوى وفي عصر الصحابة رضي الله عنهم ، على عشرة آلاف حديث ، اذا جمعت صحف ومجاميع أبي هريرة وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وأنس بن مالك ، وجابر بن عبد الله ، وعلي وابن عباس رضي الله عنهم ، فيمكن ان يقال : أن ما ثبت من الاحاديث الصحاح واحتوت عليه مجاميعها ومسانيدها قد كتب ودون في عصر النبوة وفي عصر الصحابة قبل ان يدون الموطأ والصحاح ، بكثير .

جمعت السنة اذن — جميعها تقريباً — في عهد الرسول
صلى الله عليه وسلم ، وعهد الصحابة •
جمعت دون ترتيب ولا تنسيق •
جمعت متفرقة متناثرة، يكتب هذا الحديث والحاديدين،
ويكتب الآخر المائة والمائتين ، ويزيد الثالث عن ذلك ، ويتملي
الرابع من حفظه على الآخرين ، وهكذا ، وفي ذلك لم يكن
لأحد اهتمام بالشضيد او التنسيق •
يقول الاستاذ العالم الورع المتثبت ابو الحسن الندوبي
في كتابه « رجال الفكر والدعوة » ما يلي :
وإذا جمعت هذه الصحف والمجاميع ، وما احتوت
عليه من الاحاديث ، كونت العدد الاكبر من الاحاديث التي
جمعت في الجواجم والمسانيد والسنن في القرن الثالث •
وهكذا يتتحقق ان المجموع الكبير الاكبر من الاحاديث
سبق تدوينه وتسجيله — من غير نظام وترتيب — في عهد
الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وفي عصر الصحابة رضي
الله عنهم •

صلى الله عليه وسلم ، وفي عصر الصحابة رضي الله عنهم •
ويتحدث الاستاذ ابو الحسن الندوبي عن الوهم الشائع
بين الناس من ان السنة لم تدون الا في القرن الثالث ، ويعلل
هذا الوهم تعليلاً منطقياً فيقول :
وقد شاع في الناس — حتى المثقفين والمؤلفين — أن
الحديث لم يكتب ولم يسجل الا في القرن الثالث الهجري ،

واحسنهم حالاً من يرى أنه قد كتب ودون في القرن الثاني .
وما نشأ ذلك الغلط الا عن طريقتين :

الاولى : ان عامة المؤرخين يقتصرن على ذكر مدوني
ال الحديث في القرن الثاني ، ولا يعنون بذكر هذه الصحف
والمجاميع التي كتبت في القرن الاول ، لأن عامتها فقدت
وضاعت مع أنها اندمجت وذابت في المؤلفات المتأخرة .

الثانية : ان المحدثين يذكرون عدد الاحاديث الضخم
الهائل الذي لا يتصور ان يكون قد جاء في هذه المجاميع
الصغيرة التي كتبت من القرن الاول ، مع ان عدد الاحاديث
الصحاح غير المتكررة المتجردة من المتابعات والشواهد لا
يزال قليلاً .

وقد نبه على ذلك العلامة ، مناظر احسن الكيلاني
رئيس القسم الديني سابقًا في الجامعة العثمانية بجيدر آباد
في كتابه العظيم : « تدوين الحديث » يقول وحمه الله :
وقد يتعجب الانسان من ضخامة عدد الاحاديث
المروية فيقال : ان احمد بن حنبل كان يحفظ اكثر من سبعمائة
الف حديث .

وكذلك يقال عن ابي زرعة .

ويروى عن الامام البخاري انه كان يحفظ مائتي الف
من الاحاديث الضعيفة ، ومائة الف من الاحاديث الصحيحة .
ويروى عن مسلم أنه قال : جمعت كتابي من ثلاثة
الف حديث . ولا يعرف كثير من المتعلمين — فضلاً عن

العامة . — ان الذي يكون هذا العدد الضخم هو كثرة
المتابعات والشواهد التي عنى بها المحدثون .
فحديث « انا الاعمال بالنيات » مثلا يروى من
سبعمائة طريق .

فلو جردا مجاميع الحديث من هذه المتابعات
والشواهد لبقي عدد قليل من الاحاديث .
فالجامع الصحيح للبخاري لا تزيد الاحاديث التي
رويت بالسند الصحيح فيه على ألفين وستمائة وحدفين .
واحاديث مسلم يبلغ عددها الى أربعة آلاف حديث .
وهكذا لا يبلغ عدد الاحاديث المروية في كتب الصحاح
الستة ، ومسند احمد ، وكتب اخرى ، خمسين ألف حديث ،
منها الصحيح ومنها السقيم ، ومنها المتفق عليه ، ومنها
المتكلم فيه .

وقد صرخ الحاكم ابو عبد الله — الذي يعد من
المتسامحين المتوضعين ان الاحاديث التي في الدرجة الاولى
لا تبلغ عشرة آلاف « توجيه النظر ص ٩٣ » .
ويقول الاستاذ :

ولم ينتصف القرن الثاني حتى كانت حركة الجمع
والتدوين انشط واقوى .
وكان من سبق اليها من الرجال هذا القرن :
ابن شهاب الزهري — مات عام ١٣٤ هـ
وابن جريج المكي — مات عام ١٥٠ هـ

وابن اسحق — مات عام ١٥١ هـ
 ومعمر اليمني — مات عام ١٥٣ هـ
 وسعید بن ابی عروبة المدنی — مات عام ١٥٦ هـ
 وریبع بن صبیح — مات عام ١٦٠ هـ
 وسفیان الثوری — مات عام ١٦١ هـ
 ومالك بن انس — مات عام ١٧٩ هـ
 واللیث بن سعد — مات عام ١٧٥ هـ
 وابن المبارک — مات عام ١٨١ هـ
 ثم تتابع الناس (١) ٠

ليس من همنا في هذا الفصل ان تتابع السنة في
 تدوينها ، وانما أردنا ان نوضح في هذا الفصل توضيحا
 شافيا فكرا ان السنة دونت في عهد الرسول ، صلى الله
 عليه وسلم ، وعهد الصحابة ، رضوان الله عليهم ، وأظن انه
 قد استبان الآن الامر بما لا يحتاج الى مزيد ، وشكر الله
 للباحثين الاعلام المتبرسين الذين استندوا اليهم في هذا
 الحديث ٠

(١) انظر كتاب : رجال الفكر والدعوة لابي الحسن الندوی

الفصل الثالث

المحدثون في جهادهم

وفي ضوء ما سبق قد يتساءل بعض الناس ؟ هل معنى ذلك أنه لم تحدث محاولات للوضع ، او حدث وضع بالفعل وتزييف ، واختراع في السنة ؟ والواقع أن من يزعم أن السنة - على مجرى التاريخ قد خلت من الوضع إنما ينكر الحقائق الثابتة .

لقد حاول الكثيرون وضع أحاديث على لسان الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وحاولوا ذلك لأسباب مختلفة منها : -

١ - أن بعض الناس كذابون بطبيعتهم ، اتخذوا الكذب هواية لا يستقيم أمرهم إلا على الكذب ، فكذبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإذا كان من المعروف في جميع الأديان أن بعض الناس يكذب على الله ، فإن من الأمور التي تحدث أن يكذب بعض الناس على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .

٢ - وبعض الناس يسيطر عليه مذهب من المذاهب أو نزعة من النزعات ، ويتشبع بذلك حتى يملأ عليه أقطاره فيكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تأييداً للمذهب وتأكيداً لنزعته ، وارضاً لهواه .

٣ - وبعض الناس دخل في الاسلام كرها للإسلام :
دخله ليتأمر عليه ، دخله ليكون في ظروف اكثر ملائمة
للتأمر عليه : فكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم :
افسادا للمبادئ الاسلامية الصحيحة ، وتزييفا لها .

٤ - وبعض الناس استباح الكذب على رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، في سبيل مواعظة الآخرين وهدائهم ،
ورأى ان غايته التهذيبية تبيح له ركوب هذا المركب
الفاسد .

هذه هي كل او اكثرا الاسباب التي دعت الى وضع
الاحاديث والكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم .
ولكن ذلك لم يكن في السنة بداعا من الامر .
فهذه الاسباب في الجملة كانت ولا تزال الاسباب
لتزييف التاريخ .

ان التاريخ - منذ عرف - لم يخل من العوامل التي
تحاول وضعه على غير ما كان عليه بالفعل ، وتلوينه على
الصورة التي يريد بعض الناس - ملوكا او امراء او زعماء
على اي وضع كانوا - ان يكون عليها .
ولكن تزييفهم للتاريخ لم يمنع من ظهور الحقائق ،
وكذبهم على التاريخ لم يمنع من بيان الحق ومعرفة الناس
له .

ولقد وضع المؤرخون المحدثون اصولا للنقد ،
وعلامات للحوادث المزيفة وقواعد لمعرفة الحقيقة .

ولقد استعنوا في سبيل المعرفة الصحيحة باللغة ، وبالحوادث اليقينية المتواترة ، وبالشهود العدول ، وبالمقارنات لقد استعنوا بالنقد الداخلي ، والنقد الخارجي ووصلوا بذلك إلى الحقائق التي يطمئنون إليها ، برغم ما يفصل بينهم وبين مكان الأحداث من آلاف الأميال ، وبرغم ما يفصل بينهم وبين أزمنة الحوادث من عشرات القرون . ومع كل ما حاوله المؤرخون من جهد ، ومع كل ما وضعوه من قواعد للوصول إلى اليقين فانهم — والحق يقال — لم يصلوا في كل ذلك إلى ما وصل إليه سادتنا المحدثون ، رضوان الله عليهم . وذلك للأسباب التالية :

١ — لقد بدأ تسجيل السنة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتم تسجيلها — تلتها تقريريا — في عهد الصحابة رضوان الله عليهم . فكان قرب الزمان ، اذن ، من عوامل صحة السنة .

٢ — وسجل أكثرها في المكان نفسه الذي كان فيه رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، او في امكانة قريبة ، نسبيا ، منه .

٣ — ولقد روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، احاديث كانت تحد من الوضع ، في المبدأ على الاقل ، مثل حديث :

«من كذب علي متعينا فليتبوأ مقعده في النار » . وهذه ملاحظات نذكرها لا لنقول انها حاسمة فيما

يتعلق بأمر صحة ما روي — ولقد قدمنا : أن الوضع وجد بالفعل — ولكننا نذكرها في مقالة ما يحاول بعض الناس التهويل به من امر التزييف والوضع .

اما الامور الحاسمة التي تجعلنا ثق في النتائج والثمار التي وصل اليها سلفنا الصالح فيما يتعلق بأمر السنة ، فان في أساسها :

١ - ايمان هؤلاء السلف بأنهم في عنائهم بالسنة :
— بما صرحت بها ، وبما وضع فيها — انما يجاهدون في سبيل الله .

لقد كانوا مؤمنين ايمانا عميقا ثابتا بأن في عنائهم واجبا دينيا هو ان يخلصوا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من كل زيف ، وان ينقوها من الكذورات في اخلاص مخلص ، وفي صورة من اليقين لا يفترون في الوصول اليه .

ولقد كانوا يعدون بالالاف ، ويمتازون — كما يقول ابو الحسن الندوبي — بعلو نشاطهم ، وقوة احتمالهم وصبرهم ، وقوة ذاكرتهم وحفظهم ، وقد تدفق سيلهم من بلاد العجم ، وقد ملكت قلوبهم وعقولهم الرغبة الشديدة في جمع الحديث ، وشغفوا به شغفا حال بينهم وبين الشهوات ، فطاروا في الافق ، ونقبو في البلاد في البحث عن الروايات المختلفة ، والاسانيد الصحيحة .

وكان لهم في ذلك هيام وغرام لم يعرفا عن امة من الامم في التاريخ كله ، يدل على ذلك بعض الدلالة ما يروى عن

المحدثين من التجول في البلاد ، والسفر في العالم الإسلامي ،
من أقصاه إلى أقصاه ٠

فقد روي : أن البخاري صاحب الصحيح ، بدأ
رحلته العلمية وهو لا يزال في الرابعة عشر من سنه ، وقد
زار البلدان الإسلامية : ما بين بخارى ومصر وشيوخها ٠

وروى عن أبي حاتم الرازي م ٢٧٧ هـ قال :

« أول ما رحلت أقشت سبع سنين ؛ ومشيت على قدمي
زيادة على ألف فرسخ ثم تركت العدد وخرجت من البحرين
إلى مصر ، ثم إلى الرملة ماشياً ثم إلى طرطوس ولبي عشرون
سنة » ٠

وقد سمع محدث الاندلس ابن حيون (م ٣٧٤ هـ)
الحادي في الاندلس والعراق ، والججاز واليمن ، وهكذا
قطع قارة إفريقيا من طنجة إلى مصر ، وعبر البحر الأحمر ٠
ومن المحدثين من سافر في قارة إفريقيا وآسيا وأوروبا
في طلب الحديث وهكذا انتظمت رحلته العلمية ثلاثة
قاربات كبرى ٠

وكان كثير من المحدثين يخرج من الاندلس أقصى
الغرب في العالم المتقدم المعروف يومئذ ويبلغ أقصاه في
الشرق إلى خراسان أو بالعكس ، والمطالع في تذكرة الحفاظ
المذهبية يدهش لطموح هؤلاء الرجال واحتمالهم المشاق في
طلب العلم ٠

٢ - ولقد استعمل أئمتنا النقد الداخلي والنقد

الخارجي ، بل لقد استعملوا ما يمكن ان نسميه المشاركة الوجودانية ، او بعبارة ادق ، استرواح رائحة النبوة ، او استلهام طابع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث ، او استبصار القاب ، والهام الروح ، وشرق البهيرة ، في المعرفة :

يقول الربيع بن خيثم :

« ان من الحديث حديثا له ضوء كضوء النهار تعرفه

به »

وان من الحديث حديثا له ظلمة كظلمة الليل تعرفه

بها (١) »

وهذه الطريقة تعتبر في العصر الحاضر الاوروبي من ابتداعات القرن العشرين . لقد استعملها أئمتنا ووضعوا لها الاصول ، وبيانوا كيفيتها ، ولم يتركوها للأهواء والمشارب ، ومن ادق التعبيرات عنها ما يقوله ابن القيم .

سئل : هل يمكن معرفة الموضوع بضابط ، من غير ان ينظر في سنته ؟

فهذا سؤال عظيم القدر .

وانما يعلم ذلك من تضلع في معرفة السنن الصحيحة ، واختلطت بدمه ولحمه ، وصار له فيها ملكة ، وصار له اختصاص شديد بمعرفة السنن والآثار ، ومعرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهديه فيما يأمر به وينهى عنه ، ويخبر

(١) الحاكم : في معرفة علوم الحديث ص ٢٦

عنه ويدعو اليه ، ويحبه ويكرهه ، ويشرعه للأمة ، بحيث
لأنه مخالط للرسول صلى الله عليه وسلم كواحد من
 أصحابه .

ومثل هذا يعرف من احوال الرسول صلى الله عليه
 وسلم ، ولهديه وللامه ، وما يجوز ان يخبر عنه ، وما لا
 يجوز — ما لا يعرفه غيره .

وهذا شأن كل متبوع مع متبعه، فلما شخص به، الحريص
على تبع اقواله وافعاله في العلم بها ، والتمييز بين ما يصح
ان ينسب اليه وما لا يصح — ما ليس من لا يكون كذلك .
وهذا شأن المقلدين مع آئينهم : يعرفون من اقوالهم
وصوصتهم ومذاهبهم واساليبهم ومشاربهم ما لا يعرفه
غيرهم ، وفي هذه الطريقة ايضا يقول ابن دقيق العيد :

« وكثيرا ما يحكمون بذلك (أي بالوضع) باعتبار
يرجع الى المروي والفاظ الحديث ، وحاصله انها حصلت
لهم بكثرة محاولة الفاظ النبي صلى الله عليه وسلم هيئه
نفسانية وملائكة يعرفون بها ما يجوز ان يكون من الفاظه
وما لا يجوز » .

ويقول ابن الجوزي :

الحديث المنكر يقشعر له جلد الطالب للعلم ، وينفر منه
قلبه في الغالب .

٣ — وانه لمن المعروف ان عناية سلفنا الصالح لم تكن
موجهة الى جمع الحديث وتدوينه فحسب ، وانما تعدت

ذلك — كما يقول الاستاذ الجليل ابو الحسن الندوی —
انى الوسائل التي وقعت في رواية الحديث — وهم الرواة
الذين رووا هذه الاحاديث ٠

فعنوا بمعرفتهم ومعرفة اسمائهم واسماء آباءائهم ،
وحوادث حياتهم واخلاقهم، ومكانتهم في الامانة والصدق ،
والحفظ ٠

وهكذا اصبح الذين اتصلوا بالشخصية الكريمة التي
 وعد الله لها بالخلود وبقاء الذكر واتشار الاسم « ورفعنا
 لك ذرك » اصبح الذين اتصلوا بها موضوع الدارسين ،
 والباحثين ، وخرجوا من زوايا الخمول واستحقوا الحياة
 والاشتهر ، واصابهم فيض من حياة هذه الشخصية الخالدة
 فحيوا وظهروا واحتفظ التاريخ بأسماائهم واحوالهم ، ورآه
 حقا على نفسه ، وهكذا ظهر علم أسماء الرجال في عالم
 الوجود ، وكان من مفاخر هذه الامة التي لا تشاركها فيها
 امة من الامم ، قال الدكتور « اسبرنجر »

في مقدمته الانجليزية على كتاب الاصابة في احوال الصحابة
 للحافظ ابن حجر العسقلاني ما ترجمته ٠

« لم تعرف امة في التاريخ ، ولا توجد الان على ظهر
 الارض ، وفقط لاختراع فن من اسماء الرجال الذي
 نستطيع بفضلة ان نقف على ترجمة خمسمائة الف (نصف
 مليون) من الرجال » ٠

ولم يعن المحدثون بتعريف رجال الحديث فحسب ،

بل التزموا الصدق والصراحة في تعريفهم ، وجمعوا كل ما يتصل بأخلاقهم وعاداتهم ، وما يدل على قوتهم وضعفهم ، واحتياطهم وتساهليهم ، وتفواهم وعلمهم وذاكرتهم ، وجمعوا كل ماقاله معاصر لهم فيهم، ولم يداروا ولم يجاملوا في ذلك، ولم يهابوا احدا ، ولو كان بعضهم أميراً مهاباً أو شيخاً وقوراً *

وقد روى التاريخ في ذلك طرائف تدل على شدة هؤلاء الناقدين وعلمهم بقوله تعالى : « كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم او الوالدين والاقرئين » وتدقيقهم *

قال ابو داود : كان ابو وكيع على بيت المال ، فكان وكيع ، (م ١٩٧ م) اذا روى عنه قرنه باخر *

وقد ترك معاذ بن معاذ العنبرى (م ١٩٦ هـ) رواية سعودي ، لأنه رأه يطالع الكتاب ، يعني قد تغير حفظه * وقد قدم اليه عشرة آلاف دينار ، وطلب منه ان يسكت عن فلان فلا يتكلم فيه بجرح ولا تعديل ، فأبى ورفض هذا الحال العظيم ، وقال : « لا اكتم الحق » *

وهذا قليل من كثير جداً يدل على امانة علماء الحديث والرجال ، وتدقيقهم في موضوعهم ، وتحريهم الحق والعدل في شهاداتهم ، فهل يوجد في تاريخ العلم نظير لهذه الامانة والتدعيق ؟



وما من شك في أن سلفنا الصالح بدأ بالاهتمام
بالاسناد :

أي بالاهتمام بهؤلاء الذين رروا الحديث واحدا عن
واحد حتى وصلوا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم،
او إلى أحد الصحابة رضوان الله عليهم .

ولقد اهتموا بالاسناد إلى درجة أن جعلوه من الدين

يقول الإمام الزهرى :
« الاسناد من الدين » .

لقد بحثوا عن هؤلاء الذين جاء حديث رسول الله
صلى الله عليه وسلم عن طريقهم :

لقد بحثوا عن ميلادهم ، وعن وفاتهم ، وعن أخلاقهم ،
وعن غفلتهم وسهوهم ، او يقتظتهم وصحوهم وعن ذاكرتهم
وضبطهم ، لقد بحثوا عن كل ما يتصل بهم في الفاظهم التي
ينطقون بها ، وفي سلوكهم الذي يسيرون عليه ، وفي سماتهم
من ناحية الورق والخفة ، وفي أهوائهم ومشاربهم ، وفي
نزاعاتهم ، وفي ميولهم على وجه العموم .

لقد اخترع المسلمون عالم تشريح كامل ، وضعوا به
على مائدة المعرفة ما يقرب من نصف مليون من البشر .
لقد اخترعوا علما لم يخترعه سابقوهم ، حتى بالنسبة
لكتبهم المقدسة ولم يصل إليه لاحقوهم حتى في العصر
الحديث .

علما يقول عنه المستشرق الالماني « اسبرنجر » في تصديره لكتاب الاصابة لابن حجر حينما كان في كلكتا ١٨٥٣ - ١٨٦٤ : — الكلمة التي سبق اذ ذكرناها ، والتي تعبّر عن الحقيقة الواقعية .

ولقد قيل مرة لابن المبارك : — « هذه الاحاديث المصنوعة ؟ »

فقال « يعيش لها الجهابذة » .

هؤلاء الجهابذة قاموا بما عليهم خير قيام .

يتحدث صاحب كتاب « تقدمة المعرفة لكتاب الجرح والتعديل » عن بعض ما قام به هؤلاء الجهابذة فيقول :

« التمييز بين الرواية » قال ابو محمد :

فلما لم نجد سبيلا الى معرفة شيء من معانى كتاب الله ، ولا من سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم الا من جهة النقل والرواية: وجب اذ نميز بين عدول الناقلة والرواية وثباتهم واهل الحفظ والتثبت والاتقان منهم ، وبين اهل الغفلة والتشتت وسوء الحفظ والكذب، واختراع الاحاديث الكاذبة .

ولما كان الدين هو الذي جاءنا عن الله عز وجل وعن رسوله صلى الله عليه وسلم ، بنقل الرواية ، حق علينا معرفتهم ، ووجب الفحص عن الناقلة والبحث عن احوالهم ، واثبات الذين عرفناهم بشرط العدالة والتثبت في الرواية مما يتضمن حكم العدالة في نقل الحديث بأن يكونوا امناء

في انفسهم، علماء بدينهم، أهل ورع وتقوى وحفظ للحديث
واتقان به وثبت فيه .

وأن يكونوا أهل تمييز وتحصيل ، لا يشوبهم كثير
من الغفلات ، ولا تغلب عليهم الاوهام فيما قد حفظوه
ووعوه ولا يشبه عليهم بالاغلوطات .

وان يعزل عنهم الذين جرّحهم أهل العدالة ، وكشفوا
لنا عن عوراتهم في كذبهم ، وما كان يعترىهم من غالب
الغفلة وسوء الحفظ وكثرة الغلط والسلهو والاشتباه ،
ئيعرف به أدلة هذا الدين (واعلامه - ١) وامناء الله في
ارضه على كتابه وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم
وهم هؤلاء أهل العدالة ، فيتمسّك بالذي رواه ويعتمد
عليه ، وليعرف اهل الكذب تخرصا واهل الكذب وهما ،
واهل الغفلة والنسيان والغلط ورداءة الحفظ ، فيكشف عن
حالهم وينبئ عن الوجوه التي كان مجرى روايتهم عليها ،
ان كذبا فكذب ، وان وهم فوهم ، وان غلطا فغلط .

«طبقات الرواية» : ثم احتاج الى تبيين طبقاتهم ومقدار
حالاتهم ، وتبين درجاتهم ، ليعرف من كان منهم في منزلة
الاتقاد والجهيدة والتنقير والبحث عن الرجال والمعرفة بهم
— وهؤلاء هم أهل التزكية والتعديل والجرح .

ويعرف من كان منهم عدلا في نفسه من أهل التشكيت
في الحديث والحفظ له والاتقان فيه — فهؤلاء هم أهل
العدالة .

ومنهم الصدوق في روايته ، الورع في دينه ، المثبت الذي يهم احيانا وقد قبله الجهابذة النقاد — فهذا يحتاج بحديثه ايضا ٠

ومنهم الصدوق الورع المغلل الغالب عليه الوهم والخطأ والسهو والغلط — فهذا يكتب من حديثه الترغيب والترهيب والزهد والأداب ٠ ولا يحتاج بحديثه في الحال والحرام ٠

ومنهم من قد ألق نفسيه بهم ودلسها بينهم — ممن قد ظهر للنقاد العلماء بالرجال منهم الكذب ، فهذا يترك حديثه وتطرح روايته ويسقط ولا يشتعل به » أه ٠

ولقد كان هؤلاء الجهابذة في سبيل الدين ييدعون آراءهم في أمس الناس بهم ، نصيحة للمسلمين ، وتقوى منهم ، فزياد بن أبي أنيسة — كما يذكر صحيح مسنون بشرح النووي —

يقول : « لا تأخذوا عن أخي » ٠

ويسأل علي بن المديني عن أبيه فيقول :
« سلوا عنه غيري » ٠

فيعيدون السؤال من جديد ، فيطرق ، ثم يرفع رأسه ، ويقول : « هو الدين ، انه ضعيف » ٠
وكان امر وكيع بن الجراح طريفا ، فقد كان ابوه رجلا صالحا ، لاماخذ عليه ، غير انه كان على بيت المال ، ومن

اجل وظيفته هذه كان ابنه — اذا روى عنه — يقرن معه آخر .

لقد كان سلفنا رضوان الله عليهم يعنون بالاسناد عنایة فائقة ، حتى لقد قال سفيان الثوري رضي الله عنه : « الاسناد سلاح المؤمن ، فإذا لم يكن معه سلاح فبأي شيء يقاتل (١) »

ويفسر الدكتور ناصر الدين الأسد العناية بالاسناد تفسيرا صادقا فيقول ص ٢٢٦ من كتابه النفيس : مصادر الشعر الجاهلي :

يبدو لنا ان مرد التزام الاسناد المتصل في رواية الحديث الى امرتين ، امر داخلي ، وآخر خارجي .

اما الداخلي فمبنته من نفس الراوي ، ومصدره شعوره بالتحرّج الديني ، وذلك انه ينقل كلاما من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذي قال في حديثه المشهور :

« من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » .
وفي الاسناد المتصل ما يجعل المحدث يطمئن الى ان غيره من شيوخه وشيوخه ، ثم التابعين والصحابة ، يشتراكون معه في تحمل تبعه هذا الحديث ونقله ، وانه لا

(١) انظر كتاب السنة قبل التدوين ص ٢٢٣

يستقل وحده بحمل هذا العبء ، وان تبعته لا تعدو النقل
الامين لما سمعه عن شيخ ثقة ثبت .

واما الامر الخارجي فمرجعه الى سامي الحديث من
المحدث ، وذلك ان الحديث يتضمن جزءاً كبيراً من السنة،
او هو السنة كلها ، وهو من اجل ذلك مصدر من مصادر
التشريع الاسلامي ، بل انه هو المصدر الثاني الذي يلي
في القيمة كتاب الله ، فذلك كان ما رأيت منهم من التدقيق
والتحقيق ، ومما يبعث الطمأنينة في نفوس السامعين ،
ويوحى اليهم بالثقة في حديث المحدث — ان يصل بين عصره
وعصر الرسول الكريم بسلسلة متصلة من الرواة المحدثين ،
كلهم يشهد أنه سمعه من قبله حتى يصل الاسناد الى
الصحابة فالرسول .

مصادر الشعر الجاهلي ص ٢٥٨ : ٢٥٩ هـ
ودخل في هذا الباب — باب الاسناد — فقد الرواة ،
وتصنيفهم الى فئات يأخذون من بعضها ويتوقفون عن
البعض ، ويعلنون على ملايين الناس كذب البعض ، وكان
لهم في هذا المجال شعور مرهف ، او شعور مترف اذا امكن
هذا التعبير .

يقول الامام مالك رضي الله عنه :
لا يؤخذ العلم عن اربعة :

- ١ — رجل معلن بالسنة ، وان كان اروى الناس .
- ٢ — رجل يكذب في احاديث الناس ، وان كنت لا

أتهمه ان يكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم .
٣ - وصاحب هوى يدعوا الناس الى هواه .
٤ - وشيخ له فضل وعبادة اذا كان لا يعرف ما يحدث به .

ولقد كان يحيى بن سعيد القطان رحمه الله يترنح حديث الكثير من يظهر بعض الناس بهم الخير ، فقيل له : « اما تخشى ان يكون هؤلاء الذين تركت حديثهم خصما لك عند الله يوم القيمة ؟ »

فقال : لأن يكون هؤلاء خصمي احب الي من ان يكون خصمي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : « لم لم تذهب الكذب عن حديثي » .
لقد اتفق المحدثون على ألا يأخذوا الحديث عن :

١ - الكاذبين على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل لقد اختلفوا في كفر هؤلاء ، بل لقد اختلفوا في قبول الله لتوبيتهم ، ويكتفي ان يعرف الكذب من احدهم مرة واحدة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيسقط ذلك جميع احاديثه .

على ان الكذب على الناس كان في ترك حديث الكذاب حتى ولو كان يتخرج من الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما ذكر ذلك الامام مالك ، رضي الله عنه فيما سبق .

ولأئمننا في تعقب الكذابين طرائف :
يقول الاستاذ السباعي في كتابه النفيسي : « السنة
ومكانتها في التشريع الاسلامي » :
مبينا بعض علامات الوضع في السنن ، ومنها ان يروى
ان راوي عن شيخ لم يثبت لقياه له ، او ولد بعد وفاته ، او
لم يدخل المكان الذي ادعى سماعه فيه ، كما ادعى مأمون
بن احمد الهروي انه سمع من هشام بن عمار .

فسئل الحافظ بن حبان :

متى دخلت الشام ؟

قال : سنة خمسين ومائتين .

قال ابن حبان : فان هشاما الذي تروي عنه مات سنة
خمس وأربعين ومائتين .

وكما حدث عبد الله بن اسحاق الكرماني عن محمد بن
ابي يعقوب ، فقيل له : مات محمد قبل ان تولد بتسعم سنين
وكم حدث محمد بن حاتم المكي ، عن عبد بن حميد
فقال الحكم ابو عبد الله : هذا الشيخ سمع من عبد بن حميد
بعد موته بثلاث عشرة سنة .

وفي مقدمة مسلم : ان المعلى بن عرفان قال :
حدثنا ابو وايل ، قال : خرج علينا ابن مسعود بصفين ،
وقال ابو نعيم يعني الفضل بن دكين ، حاكيه عن المعلى ،
اتراه بعث بعد الموت ؟ وذلك لأن ابن مسعود توفي سنة

اثنتين او ثلاثة وثلاثين ، قبل انقضاء خلافة عثمان بثلاث سنين ٠

ولا شك ان العمدة في مثل هذه الحالة على التاريخ . تاريخ مواليد الرواية ، واقامتهم ورحلاتهم ، وشيوخهم ، ووفاتهم ، ولذلك كان علم الطبقات قائماً بذاته عندما لا يستغني عنه نقاد الحديث ٠

قال حفص بن غياث القاضي : اذا اتهتمتم الشيخ فحاسبوه بالسنين ، يعني : سنه ، وسن من كتب عنه .
وقال سفيان الثوري : لما استعمل الرواية الكذب استعملنا لهم التوارييخ اهـ

ومن اعجب ما روي في ذلك ، هو ما يرويه ابو احمد ابن عدي الحافظ عن الامام محمد بن اسماعيل البخاري صاحب الجامع الصحيح ، قال :

« سمعت عدة من مشايخ بغداد يقولون : ان محمد بن اسماعيل البخاري قدم بغداد ، فسمع به اصحاب الحديث ، فاجتمعوا وارادوا امتحان حفظه ٠

فعمدوا الى مائة حديث قلبيوا متونها واسانيدها ، وجعلوا متن هذا الاسناد لاسناد آخر ، واسناد هذا المتن لتن آخر ، ودفعوها الى عشر انفس لكل رجل عشرة احاديث وامر وهم اذا حضروا المجلس ان يلقوا ذلك على البخاري ، وأخذوا عليه الموعد للمجلس فحضروا وحضر جماعة من الغرباء من اهل خراسان وغيرهم من البغداديين ٠

فَلَمَّا اطْمَأَنَ الْمَجْلِسُ بِأَهْلِهِ، اتَّدَبَ رَجُلٌ مِّنْ الْعَشْرَةِ
فَسَأَلَهُ عَنْ حَدِيثٍ مِّنْ تِلْكَ الْأَحَادِيثِ فَقَالَ الْبَخَارِيُّ :

« لَا أَعْرِفُهُ » ٠

فَمَا زَالَ يَلْقَى عَلَيْهِ وَاحْدًا بَعْدَ وَاحْدًا حَتَّىٰ فَرَغَ وَالْبَخَارِيُّ
يَقُولُ :

« لَا أَعْرِفُهُ » ٠

وَكَانَ الْعُلَمَاءُ مِنْ حَضْرِ الْمَجْلِسِ يَلْتَفِتُ بَعْضُهُمْ إِلَى
بَعْضٍ وَيَقُولُونَ :

« فَهُمُ الرَّجُلُ »

وَمَنْ كَانَ لَا يَدْرِي الْقَصْةَ، يَقْضِي عَلَى الْبَخَارِيِّ
بِالْعَجْزِ وَالتَّقْصِيرِ وَقَلَةِ الْحَفْظِ ٠

ثُمَّ اتَّدَبَ رَجُلٌ مِّنْ الْعَشْرَةِ إِيْضًا فَسَأَلَهُ عَنْ حَدِيثٍ مِّنْ
تِلْكَ الْأَحَادِيثِ الْمَقْلُوبَةِ ٠

فَقَالَ :

« لَا أَعْرِفُهُ » ٠

فَسَأَلَهُ عَنْ آخِرِ فَقَالَ :

« لَا أَعْرِفُهُ » ٠

فَمَا زَالَ يَلْقَى عَلَيْهِ وَاحْدًا وَاحْدًا حَتَّىٰ فَرَغَ مِنْ عَشْرَتِهِ
وَالْبَخَارِيُّ يَقُولُ :

« لَا أَعْرِفُهُ » ٠

ثُمَّ اتَّدَبَ الثَّالِثُ وَالرَّابِعُ إِلَى تَمَامِ الْعَشْرَةِ حَتَّىٰ فَرَغُوا

كلهم من القاء تلك الاحاديث المقلوبة، والبخاري لا يزيد them
على ان يقول :
« لا أعرفه » .

فلما علم انهم قد فرغوا التفت الى الاول فقال : أما
حديثك الاول فقلت كذا ، وصوابه كذا ، وحديثك الثاني
كذا ، وصوابه كذا ، والثالث والرابع على الولاء حتى اتي
على تمام العشرة ، فرد كل متن الى اسناده وكل اسناد الى
متنه ، وفعل بالآخرين مثل ذلك .

فأقر الناس له بالحفظ ، واذعنوا له بالفضل .

قال الحافظ بن حجر بعد ما حکى هذه القصة قلت :
« هنا يخضع للبخاري ، فما العجب من رده الخطأ الى
الصواب ، فانه كان حافظا ، بل العجب من حفظه للخطأ على
ترتيب ما ألقوه عليه من مرة واحدة » .

ونختم هذا الفصل بقول الاستاذ العلامة الكبير
الشيخ شibli النعmani : « لما ارادت الامم الاخرى من غير
المسلمين ان تجتمع في اطوار نهضتها اقوال رجالها وروایتهم
كان قد فات عليهم زمن طويل ، وانقضى بينها وبينهم عهد
بعيد ، فحاولوا كتابة شئون امة قد خلت ، ولم يتميزوا بين
غث ذلك الماضي وسمينه ، وصححه وسقمه ، بل لم
يعلموا احوال رواة تلك الاخبار ولا اسماءهم ، ولا تواريخ
ولادتهم .

فاكتفوا بأن اصطفوا من أخبار هؤلاء الرواة المجهولين
ورواياتهم ما يوافق هواهم ، ويلائم بيتهם ، وينطبق على
مقاييسهم *

ثم لم يمض غير زمن يسير حتى صارت تلك الخرافات
كالحقائق التاريخية المدونة في الكتب . وعلى هذا المنهج
السقير صنفت أكثر الكتب الأدبية مما يتعلق بالآم الـخواли
وشئونها والأقوام القديمة وأخبارها ، والاديان السالفة
ومذاهبها ورجالها *

اما المسلمين فقد جعلوا لرواية الأخبار والسير
فواعد محكمة يرجعون إليها، واصولاً متقدة يتمسكون بها
أولها : واعلاها الا تروي واقعة من الواقع الا عن
الذى شهدتها ، وكلما بعد العهد على هذه الواقعة فمن
الواجب تسمية من نقل خبرها عن الذى شهدتها ، ثم تسمية
من نقل ذلك الخبر عن الذى نقله عن شهد، وهكذا بالترتيب
من وقت الاستشهاد بالواقع والتحدث عنها الى زمان وقوعها
والثبت عن امانة هؤلاء الرواة ، وفهم وعدهم وحسن
تحملهم للخبر الذى يروونه *

وإذا كانوا على خلاف ذلك ، وجوب تبيينه أيضاً .
وهذه المهمة من اشق الامور ، ومع ذلك فان مئات
من المحدثين تفرغوا لها ، ووقفوا اعماراً على تحري ذلك
 واستقصائه وتدوينه ، وطافوا لأجله البلاد ، ورحلوا بين

الاقطار ، باحثين دارسين لاحوال الرواية ، وكانوا يلقون
المعاصرين لهم من الرواة لينقدوا احوالهم .

و اذا اطمأنوا الى سيرة فريق منهم سألوهم عما
يعرفونه من احوال الطبقة التي كانت قبلهم .

وقد اجتمع من هذا المجهود العلمي العظيم علم مستقل
من العلوم الاسلامية اطلق عليه فيما بعد عنوان (اسماء
الرجال) فتيسر لمن اتى بعدهم ان يقفوا على اقدار مئات
الالوف من الحفاظ والعلماء والرواية وغيرهم .

* * *

الفصل الرابع

الوضاعون في العصر الحاضر

يقول الله تعالى :

« يا ايها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنينا فتبينوا أن
تصيبوا قوما بجهالة ، فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » .
والفاسق هو الذي لا تتوافر فيه شروط العدالة ،
ولقد وضع أئمتنا شروطا للعدالة ، نذكر منها ان :

من شرط العدل : ان يتواتر فيه الصدق بمعناه الاعم
الأشمل الذي يدخل فيه : عدم تزييف النص بزيادة
او نقصان ، والذي يدخل فيه اولا ، وبالذات عدم الكذب
في الرواية ، وعدم الكذب في الحديث العادي .

ولا نريد هنا ان نستقصي ما قيل في العدالة ، وانما
نريد ان ننقل بعض نصوص لزري ، فيما بعد ، تطبيقها على
بعض المؤلفين الحديثيين .

اتنا تبين دقة اسلافنا الدقيقة مما قاله الشعبي واقسم
عليه ، وله مغزاه العميق في بيان مدى ما كان عليه اسلافنا ،
رضي الله عنهم ، من تحرر للصواب ، يقول الشعبي :
« والله لو اصبت تسعا وتسعين مرة ، واطحأت مرة ،
لعدوا علي تلك الواحدة » .

وكان أسلافنا يعتبرون الاعلان عن للكاذبين وفضحهم والتشهير بهم من الدين ، يقول عبد الرحمن بن مهدي : سألت شعبة وابن المبارك والثوري ومالك بن انس عن الرجل يتهم بالكذب ، فقالوا : « انشره فانه دين » ٠

وعن يحيى بن سعيد قال : سألت سفيان الثوري ، وشعبة ، ومالك وابن عيينة عن الرجل لا يكون ثبتا في الحديث فإذا تيني الرجل فيسأله عنه ٠
قالوا : اخبر عنه ، انه ليس بشتب ٠

ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » ٠ وهذا الذي يكذب على رسول الله فليتبوأ مقعده من النار : فاسق يجب التشهير به ، وهو فاسق قد سقطت عدالته ، ومن سقطت عدالته فانه يجب على كل مؤمن ان لا يثق في حديثه ولا في رأيه ، او تنتائج بحثه ٠ ومن ثبت عليه الكذب او الغش ، او الزيادة في النص ، او النقصان منه ، ليثبت بالزيادة او النقصان رأيا يتفق مع هواه ، ومع نزعاته ، ان كل من يفعل ذلك فقد سقطت عدالته ٠

على ان من يتزيد في النص او ينقص منه ، او يحرف فيه : يتعمد ذلك للحط من انسان او للنيل منه ، فانه ، من الناحية الانسانية : قد نزل الى مرتبة تافه الانسانية .

السليمة منها ، وانحط الى درجة تنفر الفطرة الظاهرة منها .
وبعد هذا نقول : انه شأن في زماننا هذا طائفة من
الناس يزعمون انهم من الباحثين على الاسلوب الحديث ،
اسلوب النقد والتمحيص ، والتثبت فيما يزعمون .

وما من شك في ان اسلوب النقد والتمحيص في
الحديث وفي رواة الحديث اسلوب البحث العلمي بأدق ما
يمكن ان تعبر عنه هذه الكلمة ، انما وجد حقا عند اسلافنا
من المحدثين ، انهم هم اصحاب المنهج العلمي الدقيق في
كتابة التاريخ ، انهم المخترعون له ، ولا يزالون للان ادق
من اتبعه ، وطبقه في صدق ، والمؤرخون المحدثون لم يصلوا
بعد الى ما وصل اليه سادتنا المحدثون القدماء من الدقة
العلمية .

ولازم ان تتبع فنقول :

ان هؤلاء الذين يزعمون في العصر الحاضر انهم قد
تمحضوا للبحث العلمي : ليسوا من البحث العلمي في
شيء ، ولنتريث قليلا حتى نطبق عليهم مقاييس اسلافنا في
العدالة ، لنرى ما اذا كانوا اهلا للثقة ام ليسوا بآهل لها
لقد كان اسلافنا يكتفون بثبت الكذب مرة واحدة
على شخص فيسقطونه من قائمة العدل ، فاذا ثبت مثل ذلك
على هؤلاء الكتاب المحدثين فاننا نسقطهم من طبقة العدول ،
ونضعهم في قائمة الذين وصفتهم الله بالفسق ، حين قال
فيهم :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ قَبَّلُوكُمْ أَنْ
تَصِيبُوكُمْ قَوْمًا بِجَهَالَةٍ ، فَتَصِيبُوكُمْ عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ » ٠
لَقَدْ أَرَادَ قَوْمٌ — مِنْ نَقْلَةِ الْبَحْثِ الْعَلْمِيِّ — التَّشْكِيكَ
فِي السَّنَةِ ، بَلْ هَدَمَ السَّنَةَ رَأْسًا ، وَهُؤُلَاءِ تَقْوِدُهُمْ اهْوَاءُ
مُخْتَلِفَةٌ :

ولننضر الان الى أي مدى يصل بهم تحريف الكلم عن
مواضعه وتزييفه والكذب فيه ارضاء لنزعتم الفاسدة :
يقول المرحوم الاستاذ مصطفى السباعي في كتابه النفيسي :
« السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي » : متحدثاً عن
الكذب والتحريف والبهتان الموجود في كتاب « أضواء على
السنة » (١) ٠

١ - يقول في الهاشم رقم ٣ من صحفة ١٦٢ من كتابه
عن عبد الملك بن عمرو رضي الله عنه :

وكان قد اصاب زاملتين من كتب اهل الكتاب وكان
يرويها للناس « عن النبي » ثم نسب هذا القول الى ابن
حجر في فتح الباري ص ١٦٦ ج ١ وعبارته في الفتح ليس
فيها « عن النبي » وإنما زادها ابو رية ، ونسبها الى الحافظ
ابن حجر : ليؤكد للقارئ الشك في احاديث صحابة رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، الذين كان بعضهم يستمع الى
مسلمة اهل الكتاب يتحدثون عن اخبار الامم الماضية ،

(١) أضواء على السنة للاستاذ محمود ابو رية

فمنهم من كان ينقلها عنهم على أنها قصص متعلق بالماضي
ولكن أبا رية كان يتهمهم بأنهم كانوا « ينسبونها »
إلى النبي ، صلى الله عليه وسلم !

ولم يكتفى بذلك البهتان حتى نسبه إلى الحافظ بن حجر ، وهو لم يقله قط ، ولا يقوله مسلم يعرف ما كان عليه هذا الجيل الفذ في تاريخ الإنسانية من صدق اللهجة ، واستقامة الدين ، ووقوف عند حدود الله فيما أمر وفيما نهى وهم يعلمون أن الله لعن الكاذبين ومقتهم ، وليس أقر لعيون أعداء الله والاسلام من أن يرموا بما رماهم به أبو رية .

٢ - ونقل في ص ١١٥ عن ابن كثير في البداية والنهاية ص ٢٠٦ ج ٨ أن عمر ، رضي الله عنه قال لکعب الاخبار : لترکن الحديث « عن رسول الله » او لا الحقنك بارض القردة .

وعبارة ابن كثير : لترکن الحديث عن « الاول » وليس فيها عن رسول الله ولكن امانة أبي رية اجازت له تحريف هذا النص ليثبت ما ادعاه من أن كعبا كان يحدث عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وأن الصحابة كانوا يأخذون عنه الحديث .

وهذه الفرية دسها المستشرقون اليهود امثال « جولد زيهر » ليدعوا تأثير اليهودية في الدين الاسلامي ، فتلقفهم منهم المحقق العلمي ابو رية وتبرع لهم باثباتات الادلة .

٣ - ونقل في ص ١٦٣ عن البداية والنهاية لابن كثير
ص : ١٠٦ ج ٨ ان عمر رضي الله عنه ، هدد ابا هريرة بترك
الحديث او ليقلقه بأرض دوس — او بأرض القردة .
وهذه الزيادة « او بأرض القردة » من مقتنيات ابي
رية على عمر وابن كثير معا . وانما قالها عمر لکعب كما
مر يهدده في ترك الحديث عن « الاول » أي الامم الماضية —
كما نقل ذلك ابن كثير .

٤ - نقل ابو رية في عدة مواضع من بحثه عن ابي
هريرة نصوصا في تكذيب عمر ، وعثمان وعلي وعائشة
وغيرهم لابي هريرة ، ثم نسبها الى ابن قتيبة في « تأويل
مختلف الحديث » .

وترجم ابو رية لابن قتيبة في هامش كتابه بأنه كان
لأهل السنة كالجاحظ للمعتزلة في قوة البيان والجحجة ،
وقصده من ذلك تأكيد تضليل القارئ بأن رجلاً كابن قتيبة
له مكانته بين أهل السنة ، يطعن في ابي هريرة هذا الطعن .
دليل على صحة ما يذهب اليه ابو رية من تكذيب ابي هريرة
فيما يرويه عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .
مع ان ابن قتيبة ألف كتابه : « تأويل مختلف الحديث »
للرد على من طعن في آئمة الحديث ، منذ عصر الصحابة حتى
عصره ، وخبر انهم : هم رؤساء الاعتزاز كالنظام وامثاله
وآخرين . ثم ساق ابن قتيبة شتائم النظم لابي بكر وعمر
وعثمان وعلي وابن مسعود وابي هريرة وغيرهم من كبار

الصحابة ، ثم كر بالرد عليه وتفنيد ما قاله عن كل واحد من هؤلاء .

فأخذ ابو رية ما قاله النظام في ابي هريرة ونسبة الى ابن قتيبة ، وتعامى عن رد ابن قتيبة على النظام ، وهكذا تكون الامانة « الامانة العلمية » عند هذا المحقق العلمي .

٥ - ونقل في ص ١٩٥ عن المرحوم السيد رشيد رضا
كلاما عن كعب ووهب بن منبه قال فيه

« وما يدرينا ان كل الروايات - او الموقوفة منها -
ترجع اليها مع ان العبارة : وما يدرينا ان كل (تلك)
الروايات الخ فأسقط ابو رية كلمة « تلك » والتي اشار بها
السيد رشيد - رحمة الله - الى مرويات كعب ووهب عن
أهل الكتاب ، لتجيء العبارة موهمة بأن كل روايات الصحابة
ترجع اليها . فانظر الى هذا الدس والتلاعب في تقليل
النصوص لتتفق مع اهوائه واغراضه

هذه امثلة لا مجال للمناقشة فيها تدل على تلاعبه في النصوص
التي ينقلها ، ونسبتها الى غير قائلها .

واشهد اني لا اعلم احدا من اشد المستشرقين تعصبا
ودسا ، بلغت جرأته في تحريف النصوص والتلاعب فيها
كمما بلغت جرأة ابي رية ، فماذا نقول في هذا « العلامة

المحقق الامين ؟ »

ان مقاييس اسلافنا ، بل مقاييس البحث العلمي

الصحيح في كل عصر ، تسقط عدالة أبي رية ، وتنفيه عن دائرة الباحثين وتسحب الثقة منه كلية .

لا ندرى لماذا يحاول بعض المسلمين أن يكونوا ابواً اقا للمستشرقين ، وللمستشرقين في الشرق صبيان معروفون : إن لهم صبياناً مأجورين وإن لهم صبياناً ملاحدة ، وإن لهم صبياناً تابعين ومقلدين .

فلتشهد إذن عن المستشرقين في صورة ضريحة : من المعروف أن الاستشراق — في طائفة كبيرة منه — إنما هو امتداد للحروب الصليبية .

ان الغربيين يريدون بكل وسيلة القضاء على الاسلام ،^{٢٩} كفوة لها ذاتيتها ، واصالتها ، ومنهجها في الحياة : وهم يستعملون من أجل ذلك كل الوسائل .

انهم يستعملون السلاح في قسوة قاسية ، وفي عنف عنيف حينما يمكنهم استعمال السلاح ، فإذا لم تواتهم الظروف ، استعملوا اسلحة أخرى : منها الاستشراق .

وكتيراً ما يرافق الاستشراق المدفع والدبابة في الأقطار المستعمرة ، وهدف الاستشراق افساد ما يمكن افساده من الدين ، وبالتالي من الخلق ، وقد وضع — على مر الايام — ان من خصائص الاستشراق انه :

١ — متأثر بالبيئة التي نشأ فيها المستشرقون : ولقد عبر عن هذه الحقيقة ابلغ تعبير احد الغربيين الذين كانوا

يريدون معرفة الحقيقة عن سيدنا محمد ، صلى الله عليه وسلم ، فقرأ كتابا عنه بعدة لغات ثم قال :

ان صورةنبي الاسلام صورة فرنسية اذا كانت بقلم الفرنسيين ، وهي المانية اذا كانت بقلم الالمانيين ، وهي امريكية اذا كانت بقلم الامريكيين ، وهي .. وهذا فيما يتعلق بالبيئة الاجتماعية

٢ - والاستشراق متاثر بالبيئة الدينية ، ومن الطبيعي الواضح انه اذا كان المستشرق مؤمنا بدینه : فانه يكتب عن الاسلام ، مؤمنا بأنه دین مزيف .

ولا ادرى كيف يغرب ذلك - مع بدايته - عن اذهان المسلمين الذين يقرءون الاسلاميات بقلم المستشرقين ، فيولونهم شيئا من الثقة ، او يولونهم كل الثقة حسب درجة استعداد القارئ للتقليد والمتابة .

٣ - ومن المعروف إليقيني ان الاستشراق - في اغلبه - يسير في ركب الاستعمار ، او في ركب الكنيسة .
ان ذلك ظاهر واضح لكل من قرأ تاريخ الاستشراق وصلته بالكنيسة والاستعمار .

ومن اجل ذلك لم يكن غريبا ان يزيف الاستشراق الحقائق . وهو ان لم يزيفها وطنية ، يزيفها تدينا وان لم يزيفها تدينا زيفها وطنية ، فان لم تقو الوطنية وحدتها او التدين وحده على حمل الاستشراك على التزيف، تكافف

التدین والوطنیة معا فحملاه — متعاونین — على التزییف ،
فریف تدینا ووطنیة •

انك لا تنتظر من قسيس يعيش في الكنيسة مثل :
أزین بلاسيوس ، حينما يكتب عن الاسلام ، الا مسخا
وتشويها كما فعل ذلك حينما كتب كتابه المعروف بالعنوان
الذي لا يتسم بأدب ولا محاملة ، وهو «الاسلام المسيحي»
اما القسيس لامنس فقد وهب نفسه لهدم الاسلام
عقيدة ، ولهدم الاسلام تاريخا ، ولهدم الاسلام رجالا ،
ولهدم الاسلام في كل ما يتعلق به .

ان المستشرين القساوسة : عدد لا يحصى ، اما المستشرون المستشارون في وزارات الخارجية الغربية ، وفي وزارات الداخلية الغربية وفي وزارات الدفاع والحربيه وفي وزارات الاعلام والدعـاية : فـانـهم ايـضا عـدـد لا يـكـاد يـحـصـي .

ماذا تنتظر من مستشرق هو مستشار في وزارة الدعاية ، او في وزارة الحربية ، او في وزارة الخارجية ؟ ان السذاجة مهما وصلت درجتها لا يتأتى ان تولى ثقتها لمستشرق يأكل عيشه من سيره في ركاب الاستعمار ، او في ركاب الكنيسة .

٤ - طائفة من المستشرقين مستعده ان تسير في اي ركب لانها تسير في ركب الشيطان . تلك هي طائفة المستشرقين اليهود .

ان كتاب : بروتوكولات حكماء صهيون ، او كتاب «الخطر الصهيوني» يبين في وضوح ان اليهود قد آلوا على انفسهم ان يفسدوا على الانسانية دينها وخلقها وثقافتها وقد مني الاسلام بطائفة من المستشرقين اليهود على درجة من الخبث والمكر والدهاء ، يعجب لها الشيطان نفسه .

أرأيت الى الذكاء الحاد الخبيث حينما يسنعمله صاحبه
جاهدا لا يفتر في اغراض شيطانية ، يريد بذلك ان يفسد على المسلمين مثلهم العليا في الفضيلة والخير ، وايمانهم الراسخ في الله وفي رسوله ؟

ان هذا الذكاء الحاد الخبيث الذي اخذ يعمل لا يفتر قد ترك في بضعة افراد من اليهود — كأخبر ما يكون اليهود — على رأسهم جولد زيهير .

ولقد كان جولد زيهير حركة لا تفتر في الفساد والتشويه ، وساعدته مال اليهود ودعائهم ، فترجموا ونشروا افكاره في كل مكان ، حتى لقد ترجمت كتبه الخبيثة الى اللغة العربية نفسها ، ونشرت في مختلف الاقطاع الاسلامية : تذيع الكذب في صورة البحث العلمي ، وتنشر التشويه في صورة الحقائق الثابتة ، وتدعو الى الشك فيما لا يتأتى فيه الشك ، واغترت به طائفة من المغروسين ، وظلت ان ابحاثه علمية ، وانه باحث متثبت وعالم يتحرى الحقائق .

والى هؤلاء ، والى كل من يشق بالمستشرقين ذكر

مثالين اثنين — من عشرات الامثلة — التي تعمد جولدزير ، ان يكذب ، وان يحرف الكلم عن مواضعه فيها . وهذان المثالان انما هما نموذج لاعمال كثير من المستشرقين العلمية يقول المرحوم مصطفى السباعي :

« زعم جولد تسيهير ان الزهري اعترف اعتراضا خطيرا في قوله الذي رواه عنه معمر :

« ان هؤلاء الامراء اكرهونا على كتابة احاديث » وان ذلك يفهم استعداد الزهري لأن يكسو رغبات الحكومة باسمه المعترف به عند الامة الاسلامية . قدمنا لك عند الحديث عن صدق الزهري وجرأته ، أنه ابعد الناس عن الرضوخ لاهواء الحاكمين ، وذكرنا لك من الواقع بينه وبين خلفاء بنى امية ، ما تجزم معه بأنه ليس بذلك الرجل المستعد لأن يكسو رغبات الحكومة باسمه المعترف به عند المسلمين .

اما هذا النص الذي نقله فقيه تحريف بسيط يقلب المعنى رأسا على عقب ، واصله ، كما في ابن عساكر وابن سعد :

ان الزهري كان يمتنع عن كتابة الاحاديث للناس — ويظهر انه كان يفعل ذلك ليعتمدوا على ذاكرتهم ، ولا يتتكلوا على الكتب ، — كما ذكرنا من قبل — فلما طلب منه هشام واصر عليه ان ي ملي على ولده ليتحسن حفظه كما تقدم

وأملی عليه اربعمائة حديث ، خرج من عنده وقال بأعلى صوته : « ايها الناس انا كنا منعناكم امرا قد بذلناه الان لهؤلاء ، وأن هؤلاء الامراء اكرهونا على كتابة «الاحاديث» فتعالوا حتى احدثكم بها ، فحدثهم بالاربعمائة «الحديث» هذا هو النص التاريخي لقول الزهری ، وقد رواه الخطیب بلفظ آخر وهو :

كنا نکره کتاب العلم - أي کتابته ، حتى اکرھنا عليه هؤلاء الامراء ، فرأينا الا نمنع احدا من المسلمين (١) .

فانظر کم الفرق بين ان يكون قول الزهری ، كما روی جولدتسیمر « اکرھونا على كتابة احادیث » وبين ان يكون كما رواه المؤرخون: «أکرھونا على كتابة الاحادیث» او كما رواه الخطیب « على کتاب العلم ؟ » ، ثم انظر الى هذه الامانة العلمية حذف « ال » من « الاحادیث » فقلبت الفضیلۃ رذیلة . حيث كان النص الاصلي یدل على امانة الزهری واحلاصه في نشر العلم ، فلم یرض ان یبذل للامراء ما منعه عن عامة الناس الا ان یبذله للناس جميعا ، فاذالامانة هذا المستشرق تجعله ینسب للزهری انه وضع للامراء احادیث اکرھوه عليها ، فلما یعن هذا من ذاك ؟

اما ما نقله « جولد تسیمر » من قول وكیع عن زیاد ابن عبد الله من انه كان مع شرفه في الحديث - کذابا .

(١) تقيید العلم ص ١٠٧

فهذه احدى تحريرات هذا المستشرق الخبيث ، فأصل العبارة
كما وردت في التاريخ للإمام البخاري :

وقال ابن عقبة الدوسي عن وكيع : هو (أي زياد بن
عبد الله) اشرف من ان يكذب (١) .

فأنت ترى ان وكيعا ينفي عن زياد بن عبد الله الكذب
مطلقا ، لا في الحديث فحسب ، وانه اشرف من ان يكذب ،
فحرفاها هذا المستشرق اليهودي الى : انه كان — مع شرفه
في الحديث — كذوبا . وهكذا تكون امانة هذا المستشرق ؟
ان المستشرقين واتباعهم من الملاحدة والمؤجورين والمقلدين
هم الوضاعون في العصر الحاضر .

ولكن الله سبحانه : قد هيأ للسنة تدوينا صحيحا ،
وتسجيلا متقنا ، ورجالا كرسوا حياتهم لها ، يدافعون عنها
عصرا بعد عصر ، وينشرون اريحها جيلا بعد جيل مذيعين
وشارحين ، ناسرين وموضعين .

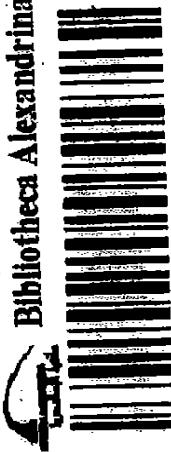
« والذين جاهدوا فينا لنهدئنهم سبلنا وان الله لمع
المحسنين » .

(١) القسم الاول ج ٢ ص ٣٢٩

فهرس الكتاب

٣	مراجع الكتاب
٥	مقدمة
١٣	الفصل الأول الرسول ﷺ وسته الشريفة
٣٥	الفصل الثاني تدوين السنة
٦١	الفصل الثالث المحدثون في جهادهم
٨٣	الفصل الرابع الوضاعون في العصر الحاضر

Bibliotheca Alexandrina



0402243

**المكتبة العصرية
للطباعة والنشر**

تلفون: ٢٢٧٥٤٥ - مص: ٨٣٠٠
مروت - لبنان

To: www.al-mostafa.com